ملحق النهار

النهار
83 سنة

السبت 28 تشرين الثاني 2015 | Samedi 28 Novembre 2015 | العدد 1234

18
رسالة الى "مسلمي" لبنان: لا خلافة ولا دولة اسلامية في القرآن

22 معضلَة التراث والمعاصرة في الفكر العربيّ الراهن

كلّنا للأمل

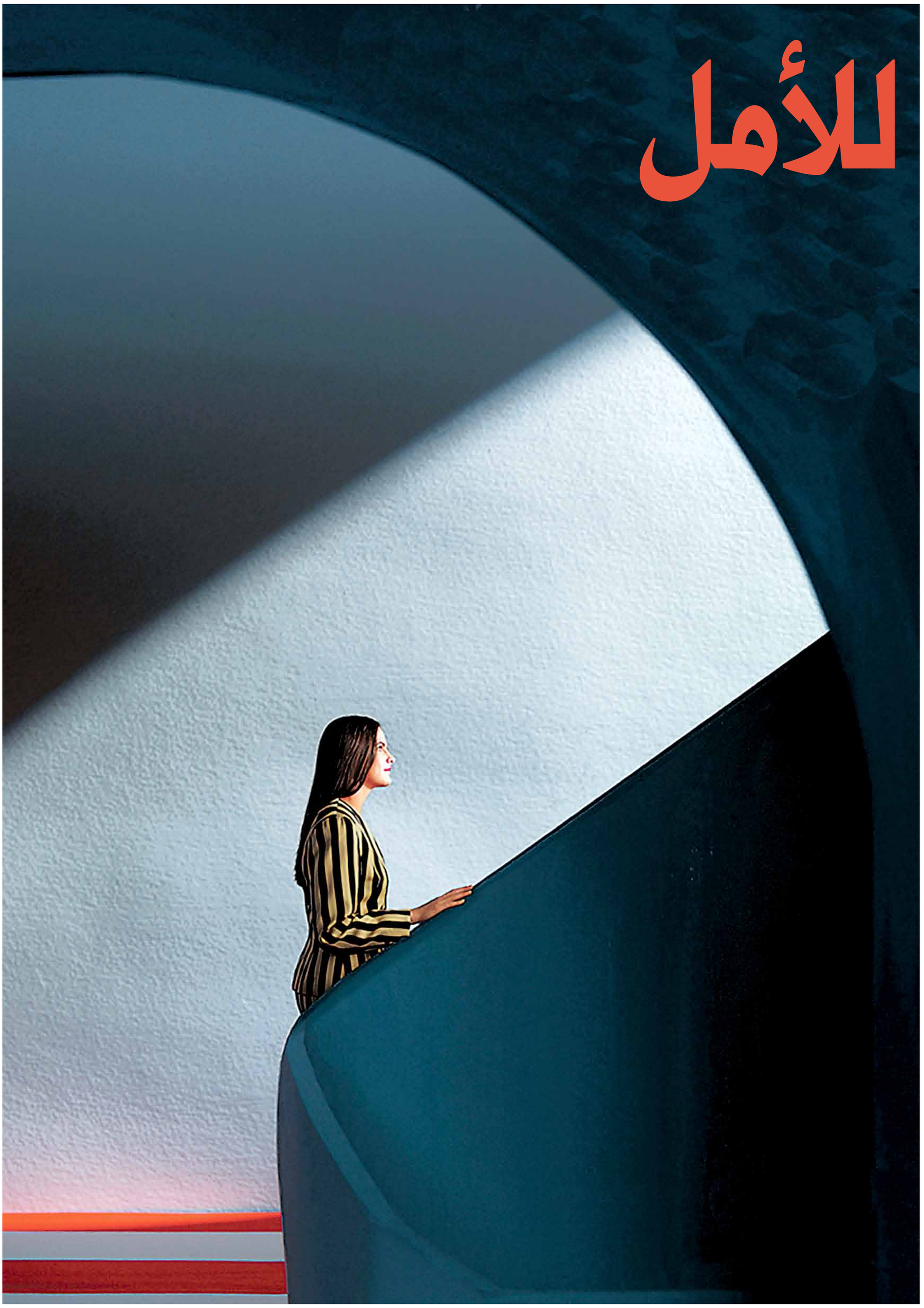

أطلقت القيادة العسكرية شعار "كلّنا للوطن"، وعلّقت لافتات ضخمة في هذا المعنى، لمناسبة عيد الاستقلال، وأرفقتها بصور الذي قضوا في سبيل الدفاع عن القيم الوطنية. في موازاة ذلك، أطلقت وزارة الاتصالات تسجيلاً هاتفياً خاطفاً لعبارة "كلنا للوطن للعلى للعلم"، في مناسبة "يوم العلم"، فقامت الدنيا ولم تقعد على وسائل التواصل الاجتماعي، تسخيفاً لهذه المبادرة واستنكاراً للوقت الضائع و... المال الضائع. من أجل الحياة التي أحبّها، أُطلق شعار "كلّنا للأمل"!

عقل العويط

أهل الوضاعة السياسية والمالية والدينية والمجتمعية والأخلاقية، عارُهم لا يوصف، ويحلو لهم أن يتفاخروا بهذا العار! عارُ هؤلاء سيقضّ مضاجعهم، وسيلاحقهم إلى القبور. وهو، سينتفض يوماً ما على نفسه، وسيثأر. على سبيل هذا النوع من "الثأر" أيضاً، ماذا لو كتبنا، وأطلقنا مبادرات تدعو إلى الوقوف الشعري الشفّاف أمام الفجر، وتروّج لأنوثة فنجان القهوة في الصباح، وللضباب الذي يفوح منه، وللعطور التي تؤخذ بموهبة الشميم والعقل؟ وماذا لو كتبنا عن الذين ينحازون إلى الغبطة الروحية، ويختارون السير في الغابات غير آبهين لنظام القتل الخلاّق؟ وماذا لو طلبنا من جميع الناس أن يفعلوا شيئاً مماثلاً بدل الاستيقاظ بأرواح متجهّمة ووجوهٍ مضرّجة بالعذاب؟ وماذا لو حوّلنا المدينة كلّها فضاءً رحباً، وليل نهار، لتظاهرات موسيقى الحبّ واللطف والحرية؟ ثمّ ماذا لو طلبنا من الجرائد والإذاعات والتلفزيونات ومواقع التواصل الاجتماعي أن تقفل مجالها الحيوي أمام أخبار الموت والعنف وفساد المعايير وسقوط أهل السياسة والاقتصاد والشأن العام في المستنقع، فـ"ترغم" المتلقي على التفاعل مع ما تقترحه له من مغريات الأمل والسعادة؟

نعم، أريد ذلك من كلّ قلبي وعقلي، ثأراً من الذين يسرقون منا بداهات الحياة وأنوثتها، وينتزعون حقّنا الطبيعي فيها. لكن، يؤسفني شخصياً أنني غير قادر على إيهام القارئ بالأمل الكاذب. لم أعد أستطيع، أيها القارئ، أن أفعل شيئاً يجافي ما أعتقد أنه حقيقة، عارفاً أن السرّاق لا يخجلون ولا يملكون الإحساس بالعيب والذلّ. صحيحٌ أنني أكتب من دون أن أرتجف، ذهاباً مع عنوان ecrire sans trembler الذي وضعه لنفسه ملحق "لوموند الكتب" في عدده، الأسبوع الفائت، وعبّر فيه 28 كاتباً من العالم عما يختلج في وجداناتهم وعقولهم من أفكار ومواقف ومشاعر حيال العنف الذي ضرب العاصمة الفرنسية؛ صحيح أنني أكتب من دون أن أرتجف، لكنني لا أستطيع أن أكذب، فأوهم الناس بأملٍ خادع أو بأملٍ مستحيل.

يؤسفني، على سبيل المثل، أنني لا أستطيع أن أعيّد فيروز، كما فعل العديد من الزملاء والأصدقاء، أنا الذي أرفض أن أجعل لها عمراً بين الأعمار، متجنّباً اغتنام مناسبةٍ هي ملكُها الشخصي الحميم، فأجعل منها عملاً احتفائياً أو استعراضياً على العموم، لإظهار مكانة هذه الفنّانة في الوجدان الجمعي، مكتفياً في 18 ←

تصوير كلارك وبونو لو سوكري، فوتو 12 غاليري.

17 ➔ المقابل بالابتسام الأناني النرجسي السرّي اللامرئي، كلما تذكرتّ انحنائي أمامها وتقبيلي يدها عندما قابلتّها للمرة الأولى، وسؤالها، هي، أمام بعض الأصدقاء، عمّن يكون هذا الرجل الغريب العجيب.

أعرف أنني لا أعرف أن أشقّ طرقاً معبّدة للمجاملات والعلاقات العامة. كما أعرف أنه لا يحقّ لي أن أكون متشائماً ويائساً. وأنه لا يجوز لي البتّة أن أبثّ روح الانهزام في "الرأي العام".

لكنْ، إذا لم يكن في اليد حيلة، فإنني أريد، على الرغم مما يمرّ به لبنان من انحطاطٍ سياسي وقيمي، مثيرٍ للتشاؤم واليأس؛ أريد لشباب المجتمع المدني وشاباته، أن "يحتلّوا" لبنان سلمياً. نعم، أن "يحتلّوه"، مثلما نحن، طلاّب ذلك الزمان وطالباته، شبابه وشاباته، احتللنا الجامعة اللبنانية، فعلاً لا قولاً، عملانياً لا رمزياً، وجعلنا لها عمداء من الطلاّب، وسيّرنا العمل في كلياتها ومعاهدها، احتجاجاً مدنياً ديموقراطياً على تلكؤ الحكومة عن تنفيذ المطالب الوطنية بجامعة طليعية، متقدمة، تكون واجهة لبنان الإنسانوي، الثقافي والعلمي.

أريد لشباب لبنان وشاباته، أن "يرغموا" النوّاب الذين مدّدوا لأنفسهم قسراً وخلافاً للقانون، على أداء واجبهم الأول بانتخاب رئيس للجمهورية، وبإقرار قانون مدني للانتخاب. كيف؟ باختراع (بل بفرض) ثقافة شبابية، جديدة، حرّة، مدنية، متمردة، من طريق الضغط الديموقراطي المنظّم، "ترهب" السياسيين، وترجّفهم، وتجعل أبناء الأجيال الجديدة، كالموج الأبيض الجارف، و"تحرّرهم" من المنتهزين والطفيليين الذين يحاولون سرقة ثقافتهم الجديدة هذه، بهدف تشويهها، وركوب موجها؛ ثقافة خلاّقة تضع المجتمع السياسي كلّه أمام "أمرهم الواقع" هذا.

كم أريد، أنا نفسي، أن يجرفني هذا "الأمر الواقع"، الشبابي، الحرّ. فهل لي بغير الكتابة، أنا الكاتب المواطن، الفرد، الأعزل، أن أشهّر بالممتنعين عن انتخاب رئيس، معلناً أن امتناعهم هذا يجعلنا دولة فاشلة ومارقة، ويجعلهم مجرمين موصوفين، أياً تكن الذرائع والأسباب التي يشهرونها في وجوه النوّاب الذين في الضفة المقابلة؟! لكن، هل يقيم هؤلاء وأولئك وزناً لكاتبٍ، هو مواطنٌ فردٌ وأعزل؟!

وهل لي بغير هذه الكتابة اللئيمة، أن أقنع الباحثين عن حلول لمسألة النفايات، بأن عجزهم المهين عن إيجاد حلّ، يجعلهم، هم أنفسهم، نفايات بشرية وسياسية وأخلاقية، بكل ما تعنيه العبارة من معنى؟

وهل لي بغيرها، هذه الكتابة – المسّاس، أن أقنع المعنيين بمسألة المكتبة الوطنية (مثلاً)، بأن لا سبب قانونياً وتقنياً وتنفيذياً وهندسياً ومالياً على الإطلاق يحول دون استكمال العمل لفتح أبوابها، سوى ما يرتبط بالقصور العقلي والعجز الإداري والتقصير الأخلاقي؟!

يؤسفني أنني لا أملك سوى الكتابة الفجّة. أقول هذا، عارفاً في قرارتي وأعماقي، وفي أدائي اليومي، كما في مهنتي، أنني، على الرغم من هذا كلّه، ومن غيره، لن أستسلم للعجز. فسيظلّ الحبر يصرخ في وجه هذا النوع من الانحطاط الأخلاقي والقيمي والسياسي، الذي يوازي فعل الاستبداد، مع فارق إضافي، أنه استبداد "وطني" عام، أشنع من الاستبدادات التي تمارسها الدول الأجنبية، الشقيقة وغير الشقيقة. وسيظلّ هذا الحبر يصرخ ويبصق في وجوه أسياد هذا الانحطاط وأدواته، قائلاً لهم إنهما لا تمطر، بل بصاقٌ هو هذا الذي يصفع كراماتهم ووجوههم الذليلة.

أعترف بأنني عاجز ويائس، وبأنني أريد أن أتداوى مما أنا فيه، لكنني لا أجد دواءً حقيقياً، أقنع به نفسي، وأقنعكَ به، أيها القارئ، سوى الأمل. وإذا كان هذا الأمل مريضاً، على قول الشاعر عباس بيضون، في عنوان أحد دواوينه، فإن هذا المرض هو دواؤنا الوحيد. هكذا، وعلى غرار "كلّنا للوطن"، فلننشد "كلّنا للأمل"، وإن يكن الأمل مريضاً حقاً!

■■■

هذا في الشأن العام. أما في الشأن الخاص فأنا لا "أرتدع". لا أتعلّم من شيء، ولا أريد أن أتعلّم من شيء. أهجم على حياتي كما لو أنني لم أهجم من قبل. وكما لو أنها، هي أيضاً، هذه الحياة، لم يسبق لها أن طعنتني في صدر أو في ظهر.

لا يعنيني أن أعي مثلاً، عندما تهاجمني غيمة، ماذا ينبغي لي أن أفعل. فأنا موقنٌ أن شيئاً ما فيها، لا بدّ أن يحميني من غرق أو من وقوع. علماً أنني لا أتهيّب وقوعاً ولا غرقاً، أنا الذي لا يحسن التعمشق بحبل نجاة، ولا السباحة في شبر ماء.

كلّما رأيتُ، تضاعفتْ غيومي وازددتُ غبشاً. كلّما رأيتُ، وقعتُ وغرقتُ.

أنا الذي لا يعنيني في هذه الحياة سوى أن أكون عاشقاً، كيف لي أن أتحمّل وزر أن لا أكون عاشقاً؟! كيف لي أن أتحمّل وزر أن أكون عاشقاً؟!

أنا الذي لا يزال ينتظر كلّ مساء مَن تقرع الباب، كما لو أن الباب سيَقرع مساءً للمرة الأولى، أيّ شعر من شأنه أن يجعلني لائقاً لفتح هذا الباب؟!

أنا الذي قد يكون بلغ من العمر ما لا يسمح له بأن يكون مراهقاً بعد الآن، يعنيني من هذا العمر، الأمل الذي سيظلّ، ولا بدّ، ينضح منّي، وإن كان مسموماً أو مريضاً!

akl.awit@annahar.com.lb

رسالة إلى "مسلمي" لبنان
لا خلافة ولا دولة دينية في القرآن

لا أريد لهذه الرسالة إلى "مسلمي" لبنان، إلا أن تكون حديث النفس المطمئنة إلى النفس المطمئنة، النفس التي يدعوها القرآن إلى أن ترجع إلى ربّها راضية مرضية، لتدخل في عباده وتدخل جنته، والتي يقول "المسيح" إنها به تحيا وإن ماتت. تركتُ شيعتي وديني منذ زمن بعيد. لم أخرج لأصير كافراً، أو زنديقاً، أو هرطوقياً، أو مرتداً يستحق القتل أو العذاب، بل شديد الإيمان، بأن المرء، لا يمكن أن يكون مؤمناً، إذا كان يعتبر دينه الحق وأديان الآخرين باطلة، وأن "النعيم" له، وللآخرين الجحيم! هي رسالة أكتبها مستوحياً القرآن والأناجيل، وبوحي من الإيمان، بأن أي تديّن ينافي أديان الآخرين، ليس درباً سليمة إلى "الله"، وما يحدث في شرقنا "العربي العبري السرياني- مهد الرسالات السموية" خير دليل! حروب دينية لا مثيل لها في العالم، بين "مسلمين" و"مسيحيين"، بين "سنّة" و"شيعة"، بين "سنّة" و"علويين"، بين "دواعش" وأقليات عرقية دينية ومذهبية، وبين "مسلمين" و"يهود"، عمرها من عمر الإسلام، وقبل أن تولد إسرائيل بقرون!

رؤوف قبيسي

الأديان والمذاهب تصنيفات تحدث شروخاً بين البشر. هكذا كانت عبر التاريخ، ومهما عقد رجال الدين والمذاهب في الشرق والغرب، مؤتمرات وندوات ومجالس، تحت عنوان "حوار الأديان"، أو "حوار الحضارات"، فسوف يفشلون. قد يخرجون بقرارات ووعود، وأدعية وصلوات، غالباً ما تكون مسكّنات تخفف الوجع إلى حين، لكن هيهات أن تستأصل المرض من أساسه، لأن التديّن، ساعة يشتد، لا يعود للإيمان وجود، وخصوصاً إذا سادت الجهالة والبطالة والأمية. لذلك خاطب "المسيح" أتباعه بالقول: "لا تفسدوا الوصية بالتقليد"، وقدّم الإيمان على الطقوس بقوله "إن الله يريد رحمة ولا يريد ذبيحة"، ولذلك جاءت الآية القرآنية لتقول: "ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر".

الدين يصادر الإيمان، يسجنه في طقوس تتحجر مع الزمن، وتشعل الفتن والحروب، ولا غرابة أن يقول ماركس إن الدين أفيون الشعوب. لم يقل صاحب نظرية الحتمية المادية، إن الإيمان أفيون الشعوب، بل قال إن الدين أفيون الشعوب، لأن في الإيمان أبعاداً إنسانية لا يظهرها التديّن، أو هي في الدين، لكنها لا تظهر إلا "لمن أتى الله بقلب سليم". هكذا أفهم القرآن، "ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثمّ وجه الله"، وهكذا أفهم حوار "يسوع" مع السامرية عند بئر يعقوب، ساعة قالت له: "آباؤنا سجدوا في هذا الجبل، وأنتم تقولون إن في أورشليم الموضع الذي يجب أن

> **المطلوب قراءة إيمانية غير حرفية للنصوص، وهذا كل شيء! قراءة، ترفض مبدأ "الناسخ والمنسوخ"، وتأخذ بفقه التيسير، وتعتبر أن "آيات السيف" من أحكام الزمن الغابر، وأنها كانت مرتبطة بظروف استثنائية، وبسياق تاريخي جاءت فيه**

يسجد فيه، أجابها: لا يا إمراة، لا في هذا الجبل ولا في أورشليم، الله روح، والذين يسجدون له، فبالحق والروح يجب أن يسجدوا"

■■■

بحثتُ عن "الله" في الكتب علّني أقف على شيء من أسرار الوجود. جعلني البحث عن هذا "الخالق" أجلّ "الكتب السموية"، ومنها هذا القرآن الذي عليه عاش آبائي وأجدادي. لا أميل إلى رأي من يزدريه، كما يفعل بعض العلمانيين والملحدين والدارسين، ولا آخذ برأي متديّن يعتبر كتابه خير الكتب، ويسفّه كتب الآخرين. أقول هذا على رغم إعتقادي الذي لا يتزعزع، بأن لكل إمرئ الحرية أن يقول مايشاء. فولتير "الكافر" بنى كنيسة لأهل قريته، وكان يقول: "لا أومن بما به تؤمن، لكني أجرّد سيفي للدفاع عن حقّك في أن تؤمن بمعتقدك الذي لا أصدّقه". عاش فولتير في القرن السابع عشر، لكن قبل أن يولد هذا الفيلسوف الفرنسي بمئات السنين، جاء القرآن فقدّم المعنى بكلام أوضح وأكثر إيجازاً، وأشار على "نبي" الإسلام بأن لا يكون على الناس وكيلاً ولا وصياً، وخاطبه بالقول: "ولو شاء ربّك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين".

كثيرون يفسرون هذه الآية، وآيات تدعو إلى حرية الاعتقاد، كآية "من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر" على أنها لا تلغي "الجهاد"، ولا تنفي واجب قتال "المشركين". يستشهدون بآية تقول: "وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله"، وآية ثانية "واقتلوهم حيث ثقفتموهم"، وآية ثالثة تقول: "إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم". يسمّونها "آيات السيف"، على رغم اعتراض بعض الفقهاء على الاسم، ويأخذون بمبدأ "الناسخ والمنسوخ"، أي السور التي تسود على ما جاء قبلها من سور، لتكون عندهم أساس الشريعة.

لن نأخذ بشروح المفسّرين والشرّاح، هي كثيرة وفيها تناقض، وقد تضعنا في مأزق، وخصوصاً ما جاء قبل من السور، وما جاء بعد، وما هو مديني من الآيات وما هو مكي، في حين أن المطلوب قراءة إيمانية غير حرفية للنصوص، وهذا كل شيء! قراءة، ترفض مبدأ "الناسخ والمنسوخ"، وتأخذ بفقه التيسير، وتعتبر أن "آيات السيف" من أحكام الزمن الغابر، وأنها كانت مرتبطة بظروف استثنائية، وبسياق تاريخي جاءت فيه. من ثمّ، ألا يعلم أهل "الجهاد" أن "كفّار الأمس" غير "كفّار اليوم"؟ "كفّار الأمس" سلاحهم السيف، مراكبهم الخيل والإبل، في حين أن "كفّار اليوم"، سلاحهم أسلحة دمار شامل، يستطيعون أن يبيدوا بها "المسلمين" في عقر دارهم، إذا حاربهم "المسلمون" في عقر دارهم! عليه نتساءل: ما الأفضل للإسلام والمسلمين، أن يأخذوا بالسيف، ويقوم من بينهم، من يفجر نفسه في بيروت ودمشق، وبغداد وباريس، أم يأخذوا بآيات السلم والصفح والرحمة والمحبة؟!

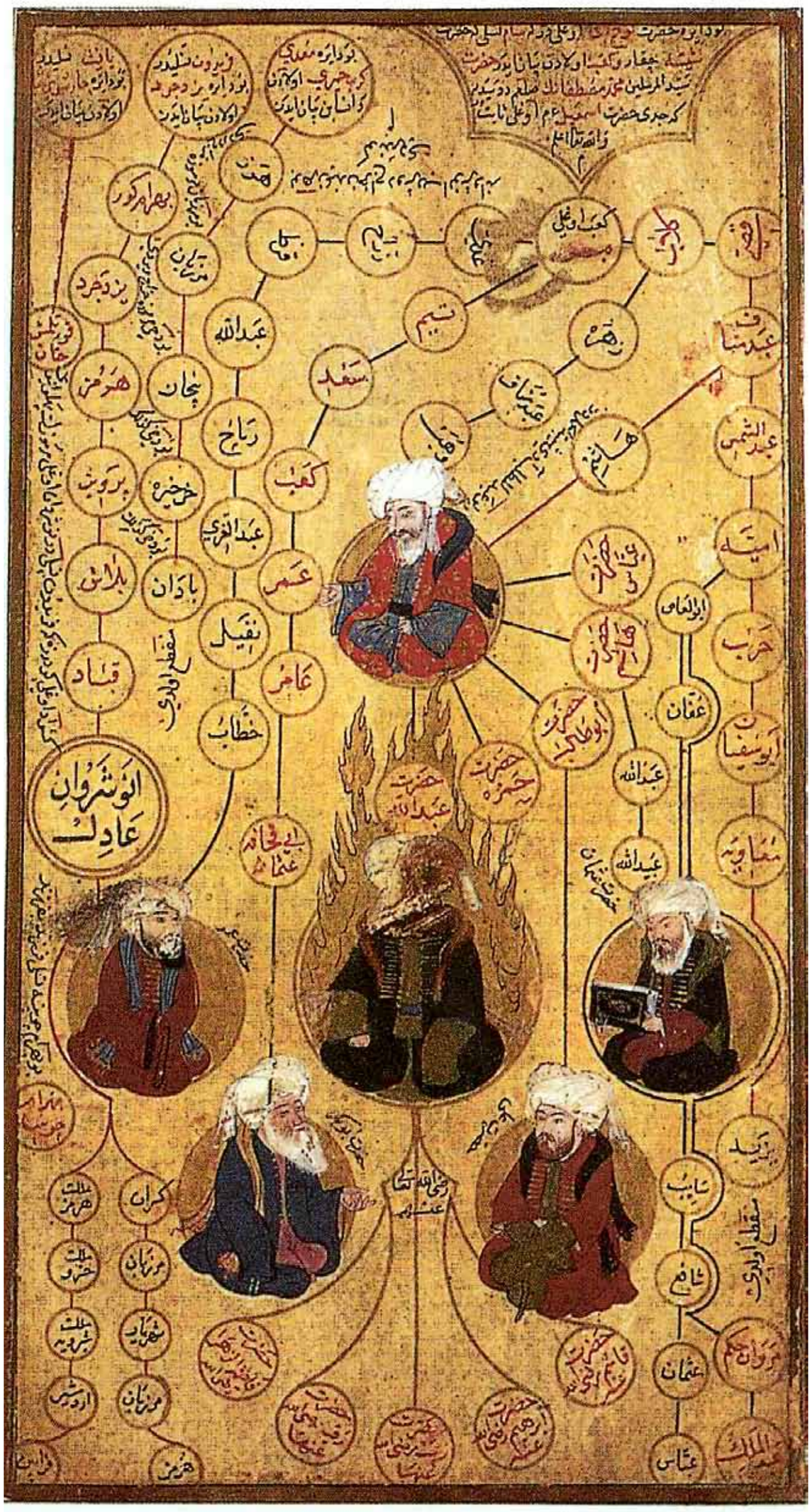

النبي والخلفاء الأربعة، منمنمة عثمانية, من القرن السادس عشر.

القرآن يقول لـ "النبي": "ولو كنت فظاً غليظاً لانفضّوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين". أما التكابر الذي يلجأ إليه المتزمّتون، فجهلٌ مطبق بتاريخ الأديان، ولقد ذكرت في غير موضع، أنني لا أغيّب السيف من المعادلة، وأقول إن الإسلام لم ينتشر بحدّ السيف، وإنه لم يُفرض عنوةً. في مراحل كثيرة قام على السيف وساد من غير شك، لكنه لم يقم بالسيف وحده ويسد، انتشر أيضاً بالهجرة وحرارة الإيمان، ولو لم تكن فيه أشياء تلبّي حاجة لدى البشر في طريق بحثهم عن "الله"، لما وصل إلى أماكن بعيدة في العالم لم تطأها أقدام "الفاتحين". مهما يكن، السيف ما كان يوماً وقفاً على الإسلام وحده. المسيحية فُرضت عنوةً أيضاً، وفي أمكنة وأزمنة كثيرة في التاريخ. فرضها قسطنطين ديانة رسمية في الأمبراطورية الرومانية، وفرضها الأمير فلاديمير في روسيا قبل نحو ألف عام، وجعلها الملك هنري الثامن بروتستانتية خالصة، حين فصل مملكته عن بابوية روما الكاثوليكية، ومهّد إلى ما عرف في ما بعد بكنيسة إنكلترا. شبيهٌ بذلك أيضاً ما فعله الشاه اسماعيل الصفوي، قبل نحو 500 سنة، عندما أخذ بالسيف القاطع وسيلة، وجعل من إيران "السنّية" دولة "شيعية"، ليصدّ خطر العثمانيين عن حدود مملكته الفارسية.

وجود السيف في "الكتب المقدسة" الأخرى، مسيحية ويهودية، خير ردّ على القائلين إن من المستحيل أن تولد دولة مدنية من رحم قرآن يوصي بقطع يد السارق، وقتل الكفّار، وجلد الزاني والزانية، وأن تكون هذه الدولة علمانية دهماوية (الدهماوية، هي الترجمة العربية للكلمة اليونانية ديموقراطية، وقد جاءت في معاجم اللغة بمعان مغايرة، لأن الحاكم لم يستأنس بمعناها الذي يعني الحكم للشعب)! هؤلاء ينسون، أو يتجاهلون، أن الدولة المدنية في الغرب لم تنشأ إلا بعدما تخطت نظرة الكنيسة الضيقة إلى الحياة، وحسبت العنف الذي في "الكتب المقدسة"، من أحكام الزمن الغابر. لذلك، على المتنورين من المسلمين، ورجال الدين الورعين الأتقياء، أن يطرحوا تفسيراً معاصراً للقرآن، يتخطى أحكام الزمن القديم، ويأخذ بفقه التيسير، الذي يستوحي الأحكام من آيات كثيرة مثل آية "يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر"، وآية "وما جعل عليكم في الدين من حرج"، وآية أخرى تقول: "يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا"، ومثلها أيضاً "لا يكلف الله نفساً إلا وسعها".

هنا لا بد من التذكير بموقف شيخ الأزهر السابق، محمد سيد طنطاوي، من الحجاب في فرنسا، عندما وقف إلى جانب الحكومة الفرنسية في منعه في المدارس، قائلاً إن لكل دولة قوانينها، وعندما أحلّ الفوائد الربوية لدى البنوك، واعتمد التيسير، وأدرج كتابه "فقه التيسير" في برامج التعليم في الأزهر، بدلاً من كتب المذاهب الأربعة (الشافعي والحنفي والحنبلي والمالكي)، في بادرة رحّب بها المعتدلون وكانوا الغالبية، وأثارت حفيظة قلة من المتنطعين والمتحفظين، الذين ما إن علموا برحيل الشيخ، حتى تنفسوا الصعداء، وأوقفوا العمل بكتابه! علينا أن نفهم رجال دين، مثل الشيخ محمد سيد طنطاوي، ومثل الشيخ الجليل عبد الله العلايلي، وإمام كبير مثل الشيخ محمد عبده، لندرك أن بعض ما في القرآن من

> **هذه "الدولة الدينية" التي يريدها الإسلاميون، لم توجد في التاريخ، ومن حسن الطالع أنها لم توجد، لسبب بسيط هو أنها مخالفة لروح القرآن! كانت هناك دول تقنّعت ببراقع الإسلام، كما الدول المحسوبة على الإسلام اليوم، لكنها لم تكن إسلامية، وكانت أبعد ما تكون عن القرآن**

قوانين وتعاليم هي "أشكال" لزمن معيّن، ومكان معيّن، ولا تتماشى مع عصر كعصرنا الذي يشهد أكبر ثورة معرفية وتكنولوجية في التاريخ، وأما في "الجوهر" فالقرآن كتابٌ باقٍ لا تستقيم الحياة من دونه، وصالحٌ لكل زمان ومكان.

في "العهد القديم" من "السيف" والترهيب أكثر مما في القرآن. نقرأ في سفر إرميا: "ملعون من يمنع سيفه عن الدم"، ونقرأ في سفر حزقيال: "فزعتم من السيف أنا أجلب عليكم السيف يقول السيد الرب"، وفي سفر صموئيل: "الآن اذهب واضرب عماليق، وحرّموا كل ماله، ولا تعف عنهم، بل اقتل رجلاً وامرأة وطفلاً ورضيعاً، بقراً وغنماً، جملاً وحماراً". أما في العهد الجديد، فلم يتورع "يسوع" الرحمة والمحبة، الذي قال لأتباعه، أحبّوا أعداءكم باركوا لاعنيكم، لم يتورع عن الأخذ بالترهيب. في أحد المواقف يدخل الهيكل ويأخذ بالسوط، يقلب موائد الصيارفة ويصرخ في وجه الجموع: "بيتي بيت الصلاة يدعى، وأنتم جعلتموه مغارة للصوص". "مسيح" الرحمة هذا قال أيضاً: "لا تظنوا أني جئت لألقي سلاماً على الأرض. ما جئت لألقي سلاماً بل سيفاً".

من "المسيحيين" ورجال الكنيسة من يعترض على هذا التفسير، بحجة أن كلام "يسوع" هنا استعارات ورموز لمعان أخرى، ولا يصح إخراجها من السياق العام الذي يرسم شخصيته الرحيمة السمحة، وأن "يسوع" الذي قال لبطرس "من يأخذ بالسيف بالسيف يُؤخذ"، لا يلجأ إلى العنف. مهما يكن التفسير، يبقى "العنف" هنا واضحا، ولو على نحو رمزي ومجازي، هو أمر لا يشين الرسالة على أي حال، لأن "يسوع" القائل: "ما جئت لأنقض الناموس جئت لأكمل"، والذي لم ينقض شريعة "موسى والأنبياء"، هو ذاته "يسوع" الذي قال غير مرة: "قد قيل لكم كذا وكذا، أما أنا فأقول لكم". خرج من التقليد ليحفظ الوصية، وترك للناس حرية وضع النظام الذي يلائمهم، كما في قوله: "مملكتي ليست من هذا العالم"، وفي قوله الآخر: "أعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله"، هكذا وصلت رسالته في الأناجيل الأربعة المعتمدة، بسيطة وديعة غنية وقوية. أما ما شابها من طقوس وشروح في ما بعد، فلا علاقة له

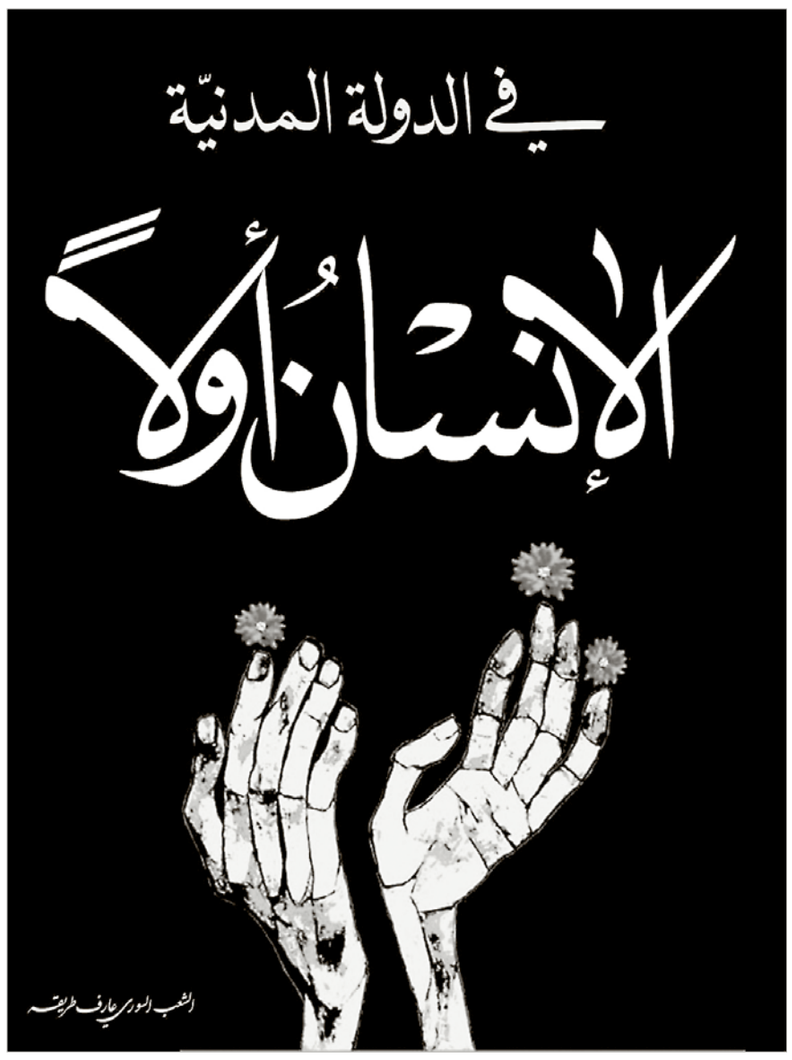

نتساءل: هل كانت الدولة الأموية إسلامية؟ هل كانت الدول الأخرى، العباسية والفاطمية والأيوبية والمملوكية والعثمانية والصفوية دولاً إسلامية حقاً؟ بالاسم كانت، لكنها لم تكن إسلامية. أما الخلافة الراشدية التي جاءت بعد موت الرسول، والتي يتغنى بها "المسلمون" فلا نعرف عنها إلا ما تفيدنا السير

بالجوهر، بدءاً بتفسيرات "الرسول بولس"، الذي يرى كثيرون، ومنهم جبران في كتابه "يسوع ابن الإنسان" أنه، أي بولس الرسول، "أفسد رسالة الناصري بما أدخل عليها من تعاليمه"!

■■■

في حياته وكتبه وأبحاثه، أخذ الشيخ اللبناني الجليل عبد الله العلايلي بشعار عنوانه: "ليس محافظة التقليد مع الخطأ، وليس خروجاً التصحيح الذي يحقق المعرفة"، وقال: "لأية جماعة الحق أن لا تتصل بالسماء عن طريق محمد". وجد الشيخ الراحل في التديّن تعصباً وتحجراً وجموداً، وفي الإيمان حياة وخلوداً. في هذا المعنى تكون "الدولة الدينية" التي يريدها المتدينون، دولة تعسفية مهينة لمعتقدات من لا يدين بدينها، دولة أحادية تأخذ جانباً واحداً، وتعتبر السائرين على مذهب غير مذهبها مواطنين من درجة ثانية وثالثة، هذا إذا أبقتهم أحياء! هذه "الدولة الدينية" التي يريدها الإسلاميون، لم توجد في التاريخ، ومن حسن الطالع أنها لم توجد، لسبب بسيط هو أنها مخالفة لروح القرآن! كانت هناك دول تقنّعت ببراقع الإسلام، كما الدول المحسوبة على الإسلام اليوم، لكنها لم تكن إسلامية، وكانت أبعد ما تكون عن القرآن.

نتساءل: هل كانت الدولة الأموية إسلامية؟ هل كانت الدول الأخرى، العباسية والفاطمية والأيوبية والمملوكية والعثمانية والصفوية دولاً إسلامية حقاً؟ بالاسم كانت، لكنها لم تكن إسلامية. أما الخلافة الراشدية التي جاءت بعد موت الرسول، والتي يتغنى بها "المسلمون" فلا نعرف عنها إلا ما تفيدنا السير، خصوصاً السيرة الأولى التي وضعها ابن هشام (توفي 833 ميلادية) نقلاً عن سيرة ابن اسحق، بعدما هذّب سيرة هذا الأخير وشذّبها كما قال في مقدمة الكتاب. سيرة ابن اسحق هذا مفقودة، ومن المؤرخين من لا يعتدّ بسيرة ابن هشام، ويعتبر فترة المئة السنة الأولى من تاريخ الإسلام "منطقة سوداء" يكتنفها الغموض، ولا أحد يعرف عنها شيئاً، ولا يوجد دليل واحد "حسي ملموس" في متاحف الدنيا يعود إلى السنوات الأولى من تاريخ الإسلام، لا قطعة نقد، ولا مخطوطة، ولا شيء آخر البتة، وكل ما يقال عن "مصحف عثمان" ورسائل "النبي" إلى كسرى، ورسائل عمر بن الخطاب إلى ملوك الفرس والروم، وشعرة "النبي" وسيفه في متاحف اسطنبول هراء بهراء. لا شيء من هذا كله صمد ويصمد أمام الفحص الكربوني! حتى "العهدة العمرية"، أي الرسالة التي تقول الكتب إن عمر بن الخطاب وجهها إلى أهل إيليا (القدس) يعطيهم فيها الأمان لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم، لا وجود لها في أي متحف، موجودة في الكتب فقط، وبنصوص مختلفة، منها ما هو صلحي ومنها ما هو عدائي! يرويها الطبري في كتابه "تاريخ الأمم والملوك" بنص يختلف عما رواه ابن كثير في "التفسير"، وما رواه إبن عساكر في "تاريخ دمشق"، وما رواه ابن القيم الجوزية في "أحكام أهل الذمة"، أما ما جاء عنها في كتابات ابن تيمية، وما يتقيد به "الداعشيون" هذه الأيام، فرسالة استسلام مهين للمسيحيين! مهما يكن، هذا "التزوير" ليس وقفاً على تاريخ الإسلام وحده. تاريخ الأديان كلها يحفل بكثير منه أيضاً. لقد ظل العالم "الكاثوليكي" مئات السنين يتبرّك بقطعة قماش ملطخة بالدم، موجودة في مدينة تورينو في إيطاليا قيل إنها كانت على جسد "المسيح" وقت الصلب، إلى أن جاءت العلوم الحديثة وفحوص الأشعة الكربونية لتدحض هذا الاعتقاد، وتبيّن أن عمر هذه "القماشة المباركة"، لا يتعدى 1300 سنة!

المشكلة في تاريخ الأديان، هي أن غالبية الناس لا تريد أن تسمع بالحقيقة الجارحة أو تراها! كان أرسطو يقول عن معلّمه أفلاطون: "أريد الحقيقة وأريد أفلاطون، لكني أريد الحقيقة أكثر مما أريد أفلاطون". يبقى أن الأمر الذي لا تدركه غالبية الناس، هو أن الحقيقة الجارحة، التي تهزّ عقول المتدينين ووجدانهم هزاً عنيفاً، هي أفضل السبل للوصول إلى الإيمان النقي المجرد، الخالص من كل وهم. بهذه الحقيقة تبرأ النفس من الخرافة، وتغدو حرة عاقلة، وبها تتجلى سلطة العقل الذي لا إمام غيره، كما يقول شاعرنا العظيم أبو العلاء المعري. السعي وراء الحقيقة يجعلنا اليوم نتساءل: أليست تنظيمات مثل "داعش" و"القاعدة" وأخواتها، ضرباً من ضروب الوهم، والقراءة الخاطئة للنص، والفهم البدائي للإسلام وتاريخ الإسلام؟!

لقد وُضعت كتب السيرة المنسوبة إلى رواة فرس وعرب، بعد مئات السنين على وقوع الحوادث، ولا أحد يمكنه أن يثبت إذا وقعت فعلاً! كُتب لعبت فيها الأغراض التجارية والسياسية والقبلية والمذهبية كل مذهب، ولا نملك صفحة أصلية واحدة منها، علماً بأن ابن هشام، كما في الكتب، وضع السيرة الأولى، بعد مضي 132 سنة على وفاة الرسول، وهو ما يعادل اليوم ألف عام! حتى لو أخذنا بما كتب ابن هشام وغيره من الرواة، سندرك من غير عسر، أن الفترة الراشدية التي تقول المراجع إنها استمرت ثلاثين عاماً، لم تكن عصراً ذهبياً على الإطلاق. فيها لاقى ثلاثة من الخلفاء الراشدين، عمر وعثمان وعلي، مصرعهم، وفيها حدثت حروب الردّة، وفيها انقسم المسلمون شيعاً وأحزاباً.

من حسن الطالع أن "النبي" لم يترك وصية مكتوبة يوصي فيها لخليفة من بعده، أو يذكر فيها ما يدل على شيء له علاقة بخلافة أو بدولة. أما اجتماع المسلمين في السقيفة، الذي تفيدنا الكتب أن فيه تمت البيعة لأبي بكر الصديق خليفة على المسلمين، فأمر لا يتماشى مع القرآن، الذي لا ذكر فيه لخلافة أو لدولة. حتى إذا اعتمدنا السيرة، وأقررنا بصحة ما جاء فيها من قصص وروايات، وأردنا أن نطبّق عليها قيم أيامنا ومعاييرها، فلن نتردد في القول، إن ذلك الاجتماع لم يكن ديموقراطياً، ولا قانونياً، ولا شرعياً، لأنه لم يؤخذ فيه برأي جموع المسلمين، أي أن بيعة أبي بكر، لم تكن شورى كاملة، أو نتيجة استفتاء عام، لذلك قال عمر بن الخطاب "إن بيعة أبي بكر كانت فلتة وقى الله المسلمين شرّها"! مهما يكن، للشيعة كتبهم الخاصة بالسيرة، وهم لا يقرّون بنتائج اجتماع السقيفة، والخلافة عندهم هي لعلي بن أبي طالب، ابن عم النبي وصهره وأبي سبطيه، الحسن والحسين، ثم لأولاده الأئمة من بعده. حجتهم في ذلك أن "الرسول" في حجة الوداع، في السنة العاشرة بعد الهجرة، وفي أثناء عودة المسلمين من المدينة المنورة، توقف في مكان يدعى غدير خم، وهناك رفع يد علي وخاطب جموع المسلمين وقال "من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه"، وقد فسّر الشيعة تلك الخطبة، بأنها إقرار واضح من "النبي" بخلافة علي، أما السنّة فيقولون إنها إقرار من "الرسول" بفضائل علي، لا بخلافته.

هذا ما دوّنه الرواة في كتب وُضعت بعد مئات السنين من وفاة "الرسول"، والناس تتداول ما قيل وما جرى، كأنها حوادث وقعت البارحة! أين الحقيقة إذاً؟ لا أحد يعرف! ليس هناك نص مكتوب موثّق يعود إلى تلك الفترة. ما الصواب إذاً، أن نركن إلى حوادث وأحاديث مختلفة وغير موثّقة على الإطلاق، أم نقول إن ليس في الإسلام دولة ولا خلافة؟ القرآن لا يشير إلى دولة ولا إلى خلافة، ولا إلى حكم جمهوري أو أميري، أو ملكي، أو مستبد، ولا يرسم آليات للحكم بالمعنى السياسي للكلمة، بل ترك الأمر شورى بين المسلمين، ومن حسن الطالع أنه تركه شورى، ليتسنى للناس اختيار النظام الذي يرتأون!

أيّ عاقل يتدبّر القرآن والسيرة، سيراوده الشك في أمر البيعة، وفي مسألة الخلافة، ومن الخير ومصلحة الإسلام والمسلمين أن يشكّوا في أمرها، ولا يعتبروها ركناً من عمارة الإيمان، وحكم الخلفاء الأربعة إن حدث كما قيل في الكتب، كان حكماً استثنائياً فرضته ظروف ذلك الزمن، ولا يصح أن يتردد، لأنه بعيد عن الإسلام الصحيح، ولا يصح بمعايير عصرنا الحاضر، الذي يتطلب الاستفتاء العام. ثم إن مشكلة الخلافة أوجدت سنّة وشيعة، وأحدثت انقساماً "سياسيا" لا تزال الفرق "الإسلامية" تعانيه حتى اليوم، وهذا ما يفرض عدم الأخذ بها. أما السبب الآخر الذي يجعلنا نرفض الخلافة، ونعتبرها خروجاً على أحكام القرآن، فهو حاجتنا الماسة إلى بناء الدولة المدنية التي لا خلاص للبنان، والعالم العربي إلا بها، وهي للمؤمنين، أقرب إلى "الله" والقرآن، من أي خلافة، أو دولة دينية أو دولة مذهبية.

من الخير أن نشكّ في الحوادث والأحاديث المدونة في السيرة، والمسيئة للرسول والإسلام، ومنها المتصل بزواجه وحياته الشخصية. من منا يستطيع أن يثبت أن الرسول خطب عائشة وهي بنت ست سنين، ودخل عليها، أو بان بها وهي بنت تسع سنين؟! هل تدخل هذه القصة في العقل؟ من منا يستطيع أيضاً أن يثبت أن معركة الجمل بين علي وعائشة وقعت فعلاً! إذا قال قائل "على رسلك يا رجل، أنت تلفي التاريخ"! فسأجيب: نعم، يطيب لي أن أشك في قصص تغض من الرسول ومن علي ومن عائشة، وتناقلتها الكتب بألوان مختلفة، ولا أحد يعرف الصحيح منها وغير الصحيح ولا شيء حولها موثّق! أريد أن أدفع عن التراث، ليبرأ من شوائب الوضع المكذوب الذي يثير الفتن والضغائن والأحقاد. أريد أن أدفع عن رسول الإسلام، وأقول إنه لم يتزوج عائشة الطفلة، ولم يوص لأحد، وإن واقعة الجمل لم تحدث، وإن الهدف من ذكرها بثّ الفرقة بين المسلمين، لينقسموا سنّة وشيعة، ولتقوم الحروب بينهم إلى أجل غير مسمّى! حروب تدكّ ديارهم وديار آبائهم وأجدادهم هذه الأيام، فيما الصهاينة يريقون مزيداً من دماء الفسطينيين، ويغتصبون مزيداً من أرض فلسطين التاريخية، متسلحين بخرافة اسمها أرض الوعد، وأحد عتاتهم (برنارد لويس) يجرّد العرب من أي روح وطنية وقومية، ويزعم أنهم (أي العرب)، لم يعرفوا في تاريخهم ولاءً إلا للدين أو القبيلة!

لا أريد أن أرى "شيعياً" يجلّ علياً، ويحطّ من قدر عمر وعثمان وأبي بكر، ويتكلم عن الخلافة كأنه حضر اجتماع السقيفة، وكان شاهداً على الحوادث! لا أريد أن أرى "سنّيا" أورثته بيئته عصبية مماثلة، يكفّر الشيعة ويقول فيهم الأقاويل. أريد أن أسمع أن "شيعيا" سمّى ابنته عائشة، وآخر سمّى ابنه عمر أو عثمان، علماً بأن هذه الأسماء ليست إسلامية، بل عربية كانت قبل الإسلام! في كتب السيرة بحر، بل بحور من الأحاديث والقصص، يسهل على كل من يريد تشويه هذا الدين، وخدش صورة رسوله أن يلجأ إليها، وحتى إلى أهم كتابين منها، عنيت بهما، "صحيح مسلم" و"صحيح البخاري".

■■■

إذا أردتني أيها القارئ الكريم، أن آخذ بالسيرة (من غير غربلة)، فسأقول لك إن ما جاء في قصة الغرانيق صحيح، وإن الشيطان دخل على الخط ساعة كان الرسول يقرأ سورة النجم ويتلقى الوحي من السماء، وسوف أقول لك أيضاً إن "النبي" قال "رزقي على رمحي"، كما جاء في "صحيح البخاري"، وأنه بان بعائشة وهي بنت تسع سنين، كما جاء في "صحيح مسلم"، وإنه صعد مرة إلى الجبل وكاد أن ينتحر، وإنه تحدث بالعربية مع حماره يعفور، وكانت لديه قدرة جنسية تعادل قدرة أربعة آلاف رجل! أهذا ما تريد أن تسمعه عن الإسلام، ورسول الإسلام، أيها القارئ الكريم، وهو مدوّن في بطون الكتب؟ أتريدنا أن نورث أبناءنا قصصاً غريبة تشيب لها الرؤوس، منها أن صحابة الرسول كانوا يتبركون ببوله، وأن "النبي" في إحدى الليالي بال في فخارة ونام، ثم جاءت إمرأة اسمها أم أيمن، أرادت أن تتبرك ببوله، وكانت عطشانة، فشربت ما في الفخارة، فلما أفاق "النبي" من نومه، قال لها "يا أم أيمن، قومي أهرقي تلك الفخارة"، فقالت له والله قد شربت ما فيها، فضحك الرسول حتى بانت نواجذه (أي أضراس العقل) وقال لها "لن تلج النار بطنك"!

كثيرون من عرب وغير عرب، قرأوا هذه القصص وأشباه هذه القصص، منهم من اشمأز، ومنهم من اتخذها ولا يزال حجة للتعريض بالإسلام. أما أنا فلا أشمئز لأن مؤرخاً أخطأ، أو فقيهاً كانت له "غاية في نفس يعقوب قضاها"، لأني لا أعتدّ بكثير مما جاء في كتب السيرة، ولا أتناول القرآن كما يتناوله المتزمتون، أو كما يرعى الجمل الأعور الأشواك، بل أنظر فيه نظرة المؤمن (غير المتدين) الذي يتصالح به مع نفسه ومع الناس، بمن فيهم اليهود والملحدون. أقرأه كما كان يقرأه عبد الله العلايلي، واتخذ منه آية كان ذلك الشيخ الراحل الجليل اتخذها مرشداً له في العمل والحياة:" قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة".

هل تعرف أيها القارئ الكريم أن بعض الدارسين من يشك في وليم شكسبير، ويعتبره شخصية خرافية، ويعتبر الأعمال الشعرية والمسرحية المنسوبة إليه، سرقة مفضوحة من مصادر لاتينية وجرمانية، ومن نتاج شعراء عاشوا في عصر الملكة اليصابات الأولى المهيب، وتهيبوا، وكتبوا بأسماء مستعارة؟ شكسبير "هذا العظيم"، كما جاء في الكتب، ولد في بلدة اسمها ستراتفورد في إنكلترا، وما نعرفه عنه غير مؤكد، حتى الصور الزيتية عنه غير موحدة، والصورة الشائعة "الثابتة" عنه ليست ثابتة. هذا عن شاعر تقول الكتب إنه عاش قبل 500 سنة، في بلد لا يهمل شيئاً، بل يحفظه ويحافظ عليه، أتريد بعد ذلك أن تركن إلى روايات وضعت قبل ألف سنة وأكثر، في صحراء العرب، ومحيط صحراء العرب، ومعظمها، أو كلها، كُتب بطريق "العنعنة"، والخلاف حولها يهرق في هذه الايام أنهاراً من الدم؟!

■■■

مهما يكن من أمر الأديان وتاريخها، وما يكتنفها من غموض وفروقات، المهم هو الجوهر، وهذا ماثل في القرآن والأناجيل، وباقي "الكتب المقدسة" خير تمثيل، وحين يصبح "المسلمون" مسلمين حقيقيين، لن يحتاجوا بعدها إلى فرض دينهم على الآخرين، ولن يحتاج مسلم مؤمن، إلى التخلي عن إيمانه ليدخل في المسيحية، أو يحتاج مسيحي مؤمن، إلى التخلي عن إيمانه ليدخل في الإسلام. أذكر في هذه المقام كلاماً حدّثني به صديق لي من رجال الأعمال المسيحيين المخلصين، مفاده أن أحد "المسلمين" جاءه مرة وقال له، بشيء من المحاباة والتزلف، إنه يفكر في هجر الإسلام، والدخول في المسيحية، فأجابه الصديق المجرّب، العارف دخيلة محدثه: "خير لك أن تقابل ربّك مسلماً سويّاً، من أن تقابله مسيحياً منافقاً"! أذكر في هذا المقام أيضاً العظة العظيمة التي ألقاها الإمام موسى الصدر منتصف السبعينات، في كاتدرائية مار لويس اللاتينية للآباء الكبوشيين في بيروت، وقوله فيها: "كانت الأديان واحدة، حيث كانت في خدمة الهدف الواحد: دعوة إلى الله وخدمة الإنسان، وهما وجهان لحقيقة واحدة. ثم اختلفت، عندما اتجهت إلى خدمة نفسها، ثم تعاظم اهتمامها بنفسها، حتى كادت أن تنسى الغاية، فتعاظم الخلاف واشتد، وازدادت محنة الإنسان وآلامه".

مهما يكن، هناك أمر يجب أن يكون واضحاً لدى العلمانيين، والملحدين والمشككين، أنه مهما اختلفت آراؤنا في "الكتب المقدسة"، وتباينت حول إنسان أو "نبي" أو "ربّ" ظهر في التاريخ اسمه "يسوع"، أو إنسان أو "نبي" اسمه محمد، ولد وعاش في بلاد العرب وتلقى الوحي من السماء، أرى التجديف على الكتب، والقول للناس في المجالس، وعلى صفحات الصحف، إن كتابكم سيئ هو عمل غير أخلاقي. الناس يختلفون بحسب خلفياتهم، وكل عالم أو مثقف، درس الفلسفة والعلوم، وأوصلته علومه وتأملاته إلى اللاأدرية Agnosticism أو الإلحاد، يختلف عن مواطن ولد في قرية نائية، ولم تسعفه الظروف ليدخل كلية أو جامعة، ليقرأ كتاباً مثل "رأس المال" لكارل ماركس، وكتاباً آخر مثل "أصل الأنواع" لتشارلز داروين، أو كتاباً في الإلحاد مثل "لماذا لستُ مسيحياً" لبرتراند راسل، بل اختلف إلى مدرسة ابتدائية، وعاش حياته يفك حروف القرآن، أو الإنجيل، أو التوراة، أو "كتاب الحكمة"، أو كتاب الصابئة "كنزاربا". المقصد من الكلام، أنه مهما فعلنا، كعلماء وأهل فكر ومعرفة، لن يكون في مقدورنا إخراج الآيات من وجدان الناس، والحكم الشيوعي الذي دام سبعين عاماً خير دليل. آيات القرآن، وأقوال "المسيح" في الأناجيل، 20 ←

قرأتُ القرآن بتمعن فلم أجد علامة واحدة تدل على هذه الدولة الدينية المزعومة، أو هذه الخلافة التي تتمنطق هذه الأيام بالسكاكين والبارود، وتضم تحت راياتها، عشرات الآلاف من الشباب الهائج، وتدغدغ أحلام الملايين من المحسوبين على الإسلام. ثمّ، هل كانت الدول التي سمِّيت إسلامية، دول عدل وحرية ومساواة، كما الدول المدنية الآن؟!

19 ➔ وأسفار التوراة، وأناشيد "داود النبي" وآيات "كتاب الحكمة" مغروزة في صدور البشر منذ مئات السنين. هي تراث البشرية، ومن الخير أن تبقى، شرط أن لا تؤثر في الجوهر، وتغدو عقيدة ذاتية جامدة، تهدد النسيج الاجتماعي والروحي وأواصر التعارف بين الناس، وتتحول إلى عصبية هوجاء، ينشرها الغلاة في القرى والدساكر والأقاليم، كما النار في الهشيم.

لن ينفع التجديف على "الكتب المقدسة"، وسياسة تسفيه معتقدات الآخرين. كان جدّي أمياً، وكذلك كانت جدّتي، كذلك كان أبي وكانت أمي، ولا أذكر أن "الله" غاب عن بيتنا يوماً، بل بقي اسمه يتردد صبحاً ومساءً، فمن أنا القادم من الغرب العلماني لأكرز بينهم بفكر جديد، وأقول لهم إنكم على خطأ، وإن ما تؤمنون به خرافة لا تصمد في وجه العلم؟! لا أحد في العالم يحق له أن يصادر الحقيقة مهما كانت جلية، وكما أن المعرفة حقيقة، كذلك هو الجهل، إنه قائم وظاهر أمام كل عين! لا يكفي على سبيل المثل، أن نلوم "الدواعش" ونحاربهم! هم مجرمون وسفاحون وقتلة بمقاييس العدل والرحمة، لكنهم، من وجهة نظر فلسفية واجتماعية، مساكين وأبرياء وضحايا، كما الضحايا الذين يموتون بنيرانهم

إن بعض ما في القرآن من قوانين وتعاليم هي "أشكال" لزمن معيّن، ومكان معيّن، ولا تتماشى مع عصر كعصرنا الذي يشهد أكبر ثورة معرفية وتكنولوجية في التاريخ

وحرابهم. علينا أن نفهم الظروف التي تدفع "داعشياً" في مقتبل العمر، ليفجر نفسه في بيروت أو باريس. هو يبيد نفسه قبل أن يبيد الآخرين. نلومه بالطبع، لا نترحم عليه ونسجنه مدى الحياة إن بقي حياً، لكن هذا لا يكفي. وكما أنه لا يكفي أن ندين المحشش، من غير أن ندين تاجر الحشيشة، لا يكفي أن نلوم "الداعشي"، من غير أن نلوم الذين هيأوا الظروف التي جعلته "داعشياً": أصحاب العصبيات الدينية المغايرة، سنّية وشيعية، وأنظمة الدول التي تفيأت بظلها هذه العصبيات، والدول الاستعمارية، والعربية وغير العربية، التي تذكي نار الفتن، وتقدم المال والعتاد والأسلحة.

لو كانت الدول العربية مدنية، هل كنا شهدنا هذه المظاهر وهذه الآثام؟ هل كنا شهدنا هذه المؤسسات الدينية تتصارع باسم "الله"، وهذه الأنظمة العربية الفاسدة، ومنها نظامنا الإقطاعي العنصري الذي يقسّم البلد مذهبياً، ويتعامل مع المواطنين على أسس طائفية، لا نظير لها حتى في عقائد القرون الوسطى؟ على الأحرار في لبنان إذاً، من مسلمين ومسيحيين حقيقيين، ورجال الدين الأتقياء الورعين، والعلمانيين والمثقفين، ودعاة المجتمع المدني، أن لا يعوّلوا على أحد من أهل السياسة في بناء الدولة المدنية. في كتابه "روح القوانين" يضع مونتسكيو، أحد أكبر فلاسفة التنوير، وأكبر كاره للأصولية الدينية في تاريخ فرنسا، أسس الجمهورية، ويقول ما معناه إننا لا نستطيع أن نبني قبل أن نهدم، ولا أن نركّب قبل أن نفكّك، لذلك فإن هدم النظام الإقطاعي الطائفي القائم في لبنان، شرط أساسي لبناء الدولة المدنية، والتخلص من آفة "الإنفصام الخلقي والروحي والوطني" التي يعانيها اللبناني منذ أن يولد إلى أن يموت. هذه الدولة لن تكون حلاً لهذا الوطن المعذب بتاريخه وجغرافيته وحكّامه فحسب، بل ستكون أيضاً نبراساً تستنير به الشعوب المجاورة، وخشبة الخلاص الوحيدة في بحر هذا الشرق المتلاطمة أمواجه.

■■■

لن يكون التديّن حلا لمشكلات البشر، خصوصاً حيث تتعدد الأديان والمذاهب، كما في الشرق، وفي لبنان بنوع خاص. ما يجمع البشر، وما هو أدنى إلى "الله"، الدولة المدنية التي هي دولة التعارف، ودولة الإيمان أي "دولة الله". هكذا سمّيتها في الرسالة التي وجهتها العام الماضي عبر "ملحق النهار"، إلى السيد حسن نصر الله، وبوحي من شعور لا يعرف التديّن، ولا يعتدّ بغير الإيمان طريقاً، كتبت أيضاً رسالة إلى "مسيحيي" لبنان للعمل على إقامة دولة مدنية، كحل لا حل غيره لهذا الوطن الصغير المعقد والمعذّب. بوحي من هذا الشعور ذاته أيضاً، أوجه هذه الرسالة إليكم يا "مسلمي" لبنان، لأقول إن لا تناقض بين الدولة المدنية والقرآن، وأن في ظلال هذه الدولة وحدها تنمو براعم إسلام صحيح، تصونه القوانين المدنية العامة، قوانين التعارف التي يوصي بها القرآن.

قد يكون من الحكمة أن أذكّركم أيها القراء الكرام، بمجتهد مجدد، أحسبكم قرأتموه أو سمعتم به، هو الشيخ الإمام محمد عبده (توفي في العام 1905)، مفتي الديار المصرية، ورائد حركة الإصلاح الديني في مصر. أنقل إليكم كلاماً قاله عند عودته إلى مصر، بعد رحلة طويلة إلى أوروبا: "ذهبت إلى الغرب فوجدت إسلاماً ولم أجد مسلمين، وعدت إلى الشرق فوجدت مسلمين ولم أجد إسلاماً"! قال الشيخ الإمام هذا الكلام بعدما وجد أن الإسلام الذي حلم به، لم يكن في مصر، ولا في أي دولة من دول العالم العربي، أو "الإسلامي"، بل في ظلال الدولة المدنية التي عاينها في أوروبا. لم يكتف الإمام العاقل الحكيم بذلك، بل ذهب إلى الأبعد، وانتقد الغلاة من الأزهريين وغير الأزهريين، وقال قولته الأخرى الشهيرة: "هو دين أردت إصلاحه، وأحاذر عليه من اصحاب العمائم"!

الدولة المدنية لا تلغي الدين من الحياة، ففي الولايات المتحدة لا يزال اسم "الله" مطبوعاً على ورقة النقد الأميركية، وفي بلاد مدنية علمانية عظيمة مثل بريطانيا لا تزال الملكة رأس الكنيسة، ولا يزال الدين أحد أعمدة الحكم، ومادة تدرّس في المدارس، ولا تزال القوانين تحمي ما هو "مقدس"، وتعاقب امرءا يعيّر آخر بدينه، أو بعرقه، أو بلونه، ولا تزال القوانين تمنع افتتاح حانة للشرب، أو نادياً للقمار بالقرب من مدرسة أو معبد، وتمنع بيع التبغ والمشروبات الروحية، لمن هم دون الثامنة عشرة، ومحظورات كثيرة لا مجال لذكرها هنا.

قد تتساءل أيها القارئ الكريم أيضاً عن الدافع وراء هذه الرسالة، ولماذا أوجهها إلى "مسلمي" لبنان؟ الجواب نابع من محنة شخصية وعامة. فقد ولدت في بيت كان البيت "الشيعي" الوحيد، في حي من أحياء بيروت "السنّية"، وكانت مدرستي الأولى مقاصدية تأخذ بالمذهب السنّي، لكنني لا أذكر في حياتي كلها أن كانت هناك عداوة بين السنّة والشيعة، كما هي الحال في هذه الأيام. لا أظنّها كانت أيضاً، كما هي اليوم بين سنّة العراق وشيعته، وبين سنّة سوريا وعلوييها، وبين الغلاة من "المسلمين"، وأخواتهم في الدين، ولا بينهم وبين "المسيحيين"، ولا بين الحوثيين وغير الحوثيين. كثيراً ما فكرت وأنا في الاغتراب: لماذا لا يحترب المنتمون إلى المدارس والطوائف "المسيحية"، من كاثوليك وبروتستانت وأرثوذكس وغيرهم، كما يحترب السنّة والشيعة، علماً بأن الفوارق "الدينية" بين المدارس والطوائف "المسيحية"، أكبر بكثير مما هي بين السنّة والشيعة، وهي تتباين حتى حول أمور تتعلق بطبيعة "المسيح"؟! لقد اختلفت الطوائف "المسيحية" في ما بينها في الماضي، وأشعلت حروباً دامت سنين طويلة، ولم تتوقف إلا عندما قامت الدول المدنية، أفلا يجدر بنا أن نتعلم من تجارب الآخرين، بدلاً من أن نحرق الأخضر واليابس لنتعلم الدرس؟! كثيراً ما تساءلت أيضاً، عن الحل الذي يمكن أن يوقف هذا الصراع، الذي بدأ يدمي جسد العرب والعروبة، ويكاد يدمي جسد لبنان، ونسيجه الوطني والاجتماعي، فلم أجده إلا في جواب يعرفه القاصي والداني من المتنورين، أي في الدولة المدنية.

نظرت من حولي في لندن حيث أعيش، في أوروبا حيث أتجول، فوجدت الملايين من "المسلمين" يمارسون طقوسهم وعباداتهم، ولم يحدث أن توترت العلاقة بينهم وبين أهل البلاد، إلا عندما تحزبت فئات قليلة منهم، نتيجة رياح دينية ومذهبية، هبّت عليهم من الشرق "الإسلامي"، فأفسدت حياتهم، ووتّرت العلاقة بينهم وبين مواطني بلاد يعيشون فيها وينعمون بخيراتها. غير أن السؤال الأساس، الذي يقض المضاجع، بقي ماثلاً: هل تخالف الدولة المدنية روح القرآن؟ هل يمكن القرآن والدولة المدنية أن يتعايشا؟

ذكّرني التساؤل بطه حسين، في مقدمة كتابه عن المتنبي. كان عميد الأدب يهمّ بالسفر إلى جنوب فرنسا لتمضية الصيف رفقة أولاده، وزوجته الفرنسية سوزان، ومعاون له كان يعتمد على نظره في القراءة. أراد عميد الأدب أن تكون رحلته فرصة يبتهلها لوضع كتاب عن المتنبي. سأله المعاون وهم يعدّون العدّة للسفر، ما إذا كان يريد بعض المراجع، وبعض كتب النقد والشروح، فأجابه الأديب الكفيف النظر البصير الرؤية: أريدك أن تحمل كتاباً واحداً لا غير، هو ديوان المتنبي، لأني أريد التعرف إلى الشاعر من خلال ديوانه، لا من خلال ما قال الناس عنه وما كتبوا. هكذا ظهر كتاب "مع المتنبي"، أحسن ما أُلّف عن شاعر العرب الأكبر حتى الآن!

فكرت في عميد الأدب وكلامه في ذلك التصدير، وقلت في نفسي: سأبدأ بالقرآن، بالقرآن وحده، لأنه النبع، ولأنه المصدر، ولأنه الكتاب الوحيد المجمع عليه بين "المسلمين". قدرت أني ما إن أفرغ من المصحف، حتى أفتح بعدها عيني وأذني لأقوال المفسرين والشرّاح. أردت أن أعرف ما إذا كان في القرآن إشارة إلى خلافة أو دولة دينية. نظرت وأنعمت النظر، فلم أجد علامة واحدة تدل على هذه الدولة المزعومة، أو هذه الخلافة التي تتمنطق هذه الأيام بالسكاكين والبارود، وتضم تحت راياتها، عشرات الآلاف من الشباب الهائج، وتدغدغ أحلام الملايين من المحسوبين على الإسلام.

لم أجد في الكتاب نظاماً للحكم. وجدت أننا متى تدبرنا الآيات بروية، وقلب سليم، سندرك أن "القرآن" كتاب يمكن أن يصلح لكل مكان وفي كل زمان، وأن حدود "الله" التي يطلب القرآن من المؤمنين أن لا يتعدّوها، لا تتعارض مع الدولة المدنية، بل تتعارض مع الدولة الدينية، التي يريدها المتزمتون، والمتاجرون بالأديان. هؤلاء يأخذون بشرعية الخلافة استناداً إلى آية تقول "فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق". هذه الآية موجهة إلى "الرسول"، وإلى "الرسول" وحده. ثم من قال إن الدولة المدنية لا تحكم بما أنزل "الله"؟ أليست هي دولة الإيمان التي يشعر فيها المواطنون جميعهم بالأمان والعدل والمساواة وحرية الاعتقاد؟ اليس هذا ما يريده "الله" لعباده؟! هناك عشرات التجارب في التاريخ المعاصر على "صحة" هذه الدولة كدولة للإنسان، وليست هناك تجربة واحدة "ناجحة" على صحة الدولة الدينية، لا في هذا العصر، ولا في أي مرحلة من مراحل التاريخ. من ثمّ، هل كانت الدول التي سمّيت إسلامية، دول عدل وحرية ومساواة، كما الدول المدنية الآن؟!

يستدل القائلون بشرعية الخلافة على آية تقول: "يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم". يتخذونها حجة ليقيموا دولة الخلافة ليكونوا هم أصحاب كراسيها ومقاليدها، في الوقت الذي يجب أن يكونوا أول من يطيع الله! هل تعني هذه الآية خلافة فعلاً؟ هي تشير إلى طاعة الله والرسول وأولي الأمر، لا إلى خلافة أو إلى أي آلية من آليات الحكم. إن طاعة "الله الحي القيوم" هنا واضحة لا جدال فيها، وأما "الرسول" فقد توفي، ولم يبق لنا إلا أولو الأمر، فمن هم أولو الأمر هؤلاء الملتزمون شرع الله، الذين يريدنا، أصحاب نظرية الخلافة، أن نطيعهم؟ هل هم موجودون فعلاً، وأين؟ هل هم أصحاب خلطة الدين بالسياسة، الذين يسيئون إلى الدين وإلى السياسة؟ هل هم أصحاب الأوقاف "الذين يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً" كما جاء في القرآن، أم أولو الأمر من أصحاب الفتاوى، الذين يظهرون على "الفضائيات"، ويخرجون بأقوال واجتهادات يتخذها "جند الله" حجة لقتل الأبرياء، وقطع رؤوس من لا يدينون بدينهم؟!

حين لا يجد أصحاب نظرية الخلافة "الدليل القاطع" على خلافة، أو دولة دينية في القرآن، يلجأون إلى كتب السيرة والحديث، هكذا تصير كتب مثل "صحيح البخاري"، و"صحيح مسلم" سنداً "أوفى" عندهم من القرآن! أما نحن "أصحاب نظرية الدولة المدنية"، فلا كتاب في الدين عندنا، نأخذه مرجعاً وسنداً إلا القرآن (والحمد لله)، لأنه منارة الإيمان الوحيدة على طريق الإسلام، ولأنه الكتاب الوحيد المجمع عليه بين المسلمين، ولأن الدولة الدينية، مسألة لا إجماع عليها بين "المسلمين"، وكلٌّ يبتغيها على قياسه. فبينما يريد السنّة أن يسمى قائدها أو رئيسها "خليفة"، يريد الشيعة أن يكون "إماما"، هذا في رأس الهرم، فما بالك بالفروع؟!

لهذا كله، فعلتُ ما فعل طه حسين. اكتفيت بالقرآن، وبالقرآن وحده، لتأكيد الحجة. لم آخذ برأي فقهاء يفسرون الآيات وفق مزاجهم ومصالحهم، ويختلفون في ما بينهم، ولا يجمعون على رأي! لم آخذ بالسيرة لأنها مشوشة، ولا أساس تاريخياً لكثير مما جاء فيها من أخبار وأحاديث وروايات. أخذت بالقران وبالقرآن وحده، لأن فيه آية تقول "إن الله غني عن العالمين"، ولأن "الله" في القرآن يوصي بأن يكون التعبد إيمانياً، لا تديّناً أعمى. هكذا يجب أن يُفهم الإسلام ويُعرض، شريعة يتصالح المسلم بها مع نفسه ومع بني جنسه، بغض النظر عن أعراقهم وألوانهم وانتماءاتهم الروحية، ولا يكفّر أحداً من الناس، لأن عند "الله" وحده يكون الحساب. لأجل ذلك كله، أوجّه هذه الرسالة إليكم يا "مسلمي" لبنان. أكتبها بنية صافية سليمة لا تشوبها شائبة، ولا ترمي إلا إلى الخير، فالأعمال بالنيات، ولكل امرئ ما نوى. أدعوكم إلى أن تشاركوا أخوانكم المسيحيين في بناء الدولة المدنية، لأنها كما هي دولة القرآن، هي أيضاً دولة الأناجيل، والدولة الوحيدة التي تصون الرسالات الروحية من عبث المنافقين والمتاجرين من أهل السياسة وأهل الدين!

■■■

من المتشدّدين من يرى في كلمة "خليفة" الواردة في القرآن حجة لتأسيس دولة الخلافة. هذه الكلمة لم ترد في الكتاب إلا في سورتين، الأولى في سورة البقرة، وتعني البشر أجمعين، "وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبّح بحمدك ونقّدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون"، وفي المرة الثانية في سورة "صاد"، وفيها وعد من "الله" إلى داوود "النبي": "يا داوود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب". يستدل من الكلام هنا أن كلمة خليفة تعني "رسول"، أي أن "الله" جعل داوود رسولاً، وهي خاصة بداوود وعلاقته بشعبه وزمانه على أي حال، ولا علاقة لها بالعرب، ولا بالمسلمين!

سيقول قائل: ماذا عن الزواج ماذا عن الطلاق ماذا عن الإرث، وغيرها من تعاليم هي أساس الشريعة؟ ما المشكلة إذا قلنا إن "حدود الله" هنا أرضية، كان لا بد منها في أزمنة محددة، وإنه ما دام الزمن قد تغير، فلا ضير أن نتجاوزها إذا كان هذا التجاوز، لا يعني خروجاً على جواهر الإيمان؟ إذا كان "الله" يريد بنا اليسر ولا يريد بنا العسر، ألا يعني ذلك أن من حقنا أن نجتهد، ونضع القوانين التي تناسب عيشنا، ما دمنا ملتزمين روح الكتاب في الخير والصدق والتسامح والرحمة والمحبة، وما دام الحاكم يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر؟! "الله غني عن العالمين"، هكذا يقول الكتاب، وإن نحن تعبّدنا ووضعنا ما يناسبنا من قوانين، فذلك لأجلنا، لا لأجل "الله" الغني عنا، وعن العالمين.

قد يقول قائل إن القرآن نمط حياة، وإن ما فيه شريعة لا تقبل التبديل والتعديل، وإن القوانين المدنية لا تتوافق مع القوانين الإلهية، الصالحة لكل زمان ومكان. لست فقيها، ولن أذهب مذهب الفقهاء، ولست مؤهلاً لأعتمر عمامة أحد منهم ولا أريد، لكن أقول إن التفسير ليس وقفاً عليهم وحدهم. أعمل عقلي في ما هو أمامي وأقول، إن الدولة المدنية ليست خروجاً على الإسلام، بل هي الدولة الوحيدة التي تجعل المسلم يخاف "الله"، ويؤاخي المسيحي واليهودي والبوذي والملحد، وفي القرآن آية جلية واضحة تسند هذا الرأي: "يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم".

القرآن هنا يقول لنا إن التقوى عند "الله" تحتّم علينا التعارف مع القبائل والشعوب، وهؤلاء

أما اجتماع المسلمين في السقيفة فلم يكن ديموقراطياً، ولا قانونياً، ولا شرعياً، لأنه لم يؤخذ فيه برأي جموع المسلمين، أي أن بيعة أبي بكر، لم تكن شورى كاملة، أو نتيجة استفتاء عام، لذلك قال عمر بن الخطاب "إن بيعة أبي بكر كانت فلتة وقى الله المسلمين شرّها"!

لا بد أن يكونوا مختلفين عنا حتماً، لأننا لو كنا شعباً واحداً متجانساً، ولساناً واحداً، لما أوصانا القرآن بالتعارف، وخصوصا أن فيه آية تقول: "ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة". هنا لا بد للعاقل أن يتساءل: هل هناك شريعة أفضل من هذه الشريعة التي جاءت من بلاد العرب قبل مئات السنين، وقبل أن يسمع العالم بشيء اسمه شرعة حقوق الإنسان، ويضع المبادئ التي مهدت لتأسيس عصبة الأمم المتحدة؟

يقول القرآن "لا إكراه في الدين"، ويقول للمسلمين أمركم شورى، وإذا اتفق أن وجد الناس الدولة المدنية خير سبيل إلى هذا التعارف وإلى هذه التقوى، فهل تكون هذه التقوى عندئذ خروجاً على الإسلام، أم تكون من صلبه؟ الدولة المدنية ليست فكراً مستورداً، هي من صلب الإيمان القرآني. أما الذين يظنون أن الخلافة مدينة فاضلة فواهمون، وكلنا يعرف أن الدول التي نشأت في الشرق، وحَسبت على الإسلام قامت بحد السيف والغدر والقتل، وما نقلته كتب التاريخ في هذا الشأن واضح! أما المدينة الفاضلة، التي حكى عنها فلاسفة الإغريق، فهي في الأحلام، ولن توجد في الحياة الواقعة ولو بعد ملايين السنين، لأنها منافية للطبيعة البشرية القائمة على التضاد، وعلى ثنائية الخير والشر، ولأن هذا العالم سيبقى دوماً عالم لصوص وكذبة وأفّاقين ومجرمين وأوغاد كما قال فاغنر، ولقد أوضح القرآن هذه الطبيعة الخيرة الشريرة قبل أن يولد فاغنر بقرون. أوضحها في آية تقول: "ونفس وما سوّاها فألهمها فجورها وتقواها". أما رافضو الدولة المدنية بحجة أنها خطر على المجتمع، ودولة فسق ومجون، فيجب أن لا يغيب عن بالهم أن دولتهم البديلة، الدولة الدينية، ستقضي على العقل إن قامت، وستكون عنصرية لا محالة، وستشعل الضغائن والفتن والحروب، خصوصاً متى ولدت في منطقة تكثر فيها الأديان والمذاهب، وهي لن تدوم على أي حال، لسبب بسيط، أنها مخالفة لروح القرآن!

قد يقول قائل إن الخلافات ستبقى قائمة إذا استبدلنا الحدود القرآنية بقوانين مدنية. أبحث في القرآن فأجد كلاماً لا مثيل له في أي كتاب سموي وغير سموي. آية يمكن أن تكون دستوراً للأمم: "إلى الله مرجعكم جميعاً فينبّئكم بما كنتم فيه تختلفون"، معناها أن "الله" وحده يبّت الخلافات بين البشر، ولا يحق لغير "الله" أن يفعل ذلك! هل قرأ الداعشيون، والأخوة "المسلمون" من جميع الطوائف والمذاهب، هذه الآية المرددة في غير سورة من سور القرآن؟ أظنهم قرأوها غير مرة، لكن هل فهموها حق الفهم؟ لو فهموها لما تجرأ أحد منهم، على الأخذ بالسيف، ليفرض معتقده على الآخرين.

أعطي بعض الأمثلة التي تجعلنا نقرّ بأن بعض ما جاء من أحكام قرآنية كانت لزمن محدد، مثل الآية التي تقضي بقطع يد السارق. هل يعقل مثلاً أن ننفذ حكماً من هذا النوع في زمننا الحاضر، مع معرفة ما يمكن أن يترتب على هذا الحكم من

مبايعة الخليفة العباسي الأول، منمنمة من القرن السادس عشر.

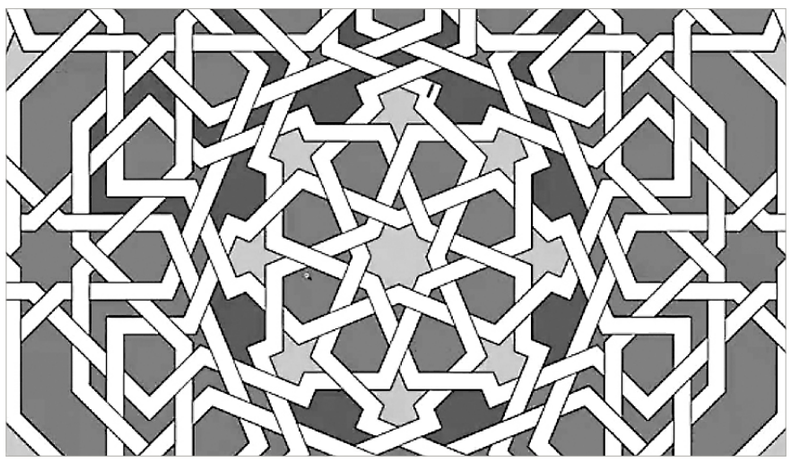

ولدت الدولة المدنية في الغرب، بعد مخاض عسير، وصراع حاد بين العلم والجهل، بين التدين والإيمان، بين البصيرة والغيب، بين العقول النيّرة وصلف الحاكم، وحكم المقصلة ومنصّات المشانق. حاربتها السلطة الدينية الغربية باسم "المسيح"، وتحاربها في الشرق اليوم، قوافل من وثنيين جدد، تحت راية الإسلام و"نبي" الإسلام، وبأشد ضروب الجهالة والغريزة العمياء

سندرك من غير عسر، أن الفترة الراشدية التي تقول المراجع إنها استمرت ثلاثين عاماً، لم تكن عصراً ذهبياً على الإطلاق. فيها لاقى ثلاثة من الخلفاء الراشدين، عمر وعثمان وعلي، مصرعهم، وفيها حدثت حروب الردّة، وفيها انقسم المسلمون شيعاً وأحزاباً

نتائج، تتحملها دائرة الرعاية الاجتماعية، لتنفق على من قُطعت يده؟

مثل آخر: تقول آية في سورة النساء: "ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة أو ديّة إلى أهله". ألا تعني جملة "تحرير رقبة" أنها لزمن محدد كان فيه رق وكان فيه عبيد؟ ثم إن قيمة الديّة غير محددة، وقيمتها قبل 1400 سنة غير قيمتها الآن. كذلك، هل يعقل اليوم أن يتزوج رجل أربع نساء، وأن يبقى التناسل كما هو ولا يتحدد، فيما أعداد "المسلمين" في العالم تزداد على نحو مخيف، ومعها نسب الأمية والبطالة والمرض بينهم، لا لشيء إلا لأن القرآن لم يحدد النسل؟! هذا ما يراه بعض "الفقهاء" النجباء الذين يعارضون تحديد النسل، ويبررون الزواج من قاصرات، ونكح اليتامى اللاتي لم يبلغن بعد، أو يحضن بعد.

الآيات القرآنية عند بعض الفقهاء تبيح هذا الزواج، لكن أي عاقل يتدبر الكتاب، سيدرك أنها كانت، استناداً إلى ما تقدم ذكره، تعليمات لزمن محدد، وكان هناك ما يبررها، إذا وقفنا على أحوال الأعراب قبل الإسلام، وما كانوا عليه من تخلف، وحاجتهم الماسة إلى قوانين وإرشادات تخفف من حدة حياتهم البدوية الجافة. لقد منعت دولة مثل مصر الزواج من القاصرات، فهل يعني ذلك أن الدولة العربية الكبرى، التي فيها الجامع الأزهر، وجامع "سيدنا الحسين" خالفت القرآن؟! القرآن لا يتساهل في "العبادات"، لكنه يتساهل في "المعاملات" إذا كان ذلك من ضرورات الزمن وأحكامه. هذا عند العقول النيّرة، لكنه ليس كذلك من منظور الذين "لا" يتسع القرآن عندهم إلا لدماغ واحد: الساعون في الظلم، الظلاميون الكارهون للنور، الذين لا يريدون لشمس الحياة أن تسطع.

مثل آخر يتصل بموقف القرآن من اليهود والنصارى. من يقرأ الكتاب قراءة سريعة، سيعتبره كتاباً عنصرياً، لأن فيه آية عن اليهود تقول: "لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا". هذه الآية خير دليل على أن بعض ما جاء في القرآن من أحكام، هو لزمن محدد. القرآن لا يمكن أن يكون ضد اليهود في المطلق، بل ضد يهود قدامى خالفوا شريعة "موسى والأنبياء" يوم ظهور الإسلام. الشيء نفسه يمكن أن يقال عن المسيحيين، الذين يسمّيهم القرآن نصارى. تقول الآية لرسول الإسلام "لن ترضى عنك اليهود والنصارى حتى تتبع ملّتهم". هذه الآية لا يمكن أن تكون ضد اليهود والمسيحيين على العموم، بل ضد المتزمتين من "النصارى واليهود"، الذين لا يرضون عن المسلم حتى يتبع ملّتهم، كما "المسلم" المتزمت، لا يرضى عن المسيحي واليهودي حتى يتبعا ملّته. قد أبدو هنا كأنني أقوم بـ"جراحة تجميلية" للقرآن، لكني لا أجد تفسيراً لهذه الآيات القرانية "المثيرة للجدل" في أذهان بعض الناس، ولا أريد أن أجد لها تفسيراً إلا في ضوء مصباح يقضي بقراءة إيمانية غير حرفية للآيات، وإلا وقعنا في حبائل المتزمّتين، وتفاسيرهم الضيقة، التي توسّع هوة الخلاف بينهم، وبين أتباع العقائد الروحية الأخرى، وتجر بلادنا وأجيالنا إلى الوراء.

مهما يكن، هناك آيات فيها مديح للنصارى، ومديح غير عادي لبني إسرائيل، كما في الآية "يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وإني فضلتكم على العالمين". يكفي أن نشير إلى تصالح الإسلام مع اليهودية والمسيحية ما جاء في سورة البقرة: "إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون". لقد أتى القرآن على ذكر "موسى نبي العبرانيين" 136 مرة، وعلى ذكر "المسيح" 33 مرة، إشارة إلى عمره، فيما لم يأت على ذكر "نبي" الإسلام إلا خمس مرات، أربع منها بلفظ محمد، ومرة بلفظ أحمد، كما أن مريم البتول، هي المرأة الوحيدة التي

ذكرها القرآن بالاسم، ما يدل على أن الإسلام كشريعة، استكمال لشرائع سابقة، تعززها آية من سورة المائدة تقول: "وقفّينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور".

إن قراءة إيمانية غير حرفية للقرآن، واعتبار بعض الأحكام لزمن محدد، يساعدنا على إدراك كنه الكتاب، والوقوف على حال العرب وتقاليدهم قبل ظهور الإسلام وبعده، وكما أن الأمور مرهونة بأوقاتها كما يقال، كذلك بعض الأحكام الزمنية مرهونة بأوقاتها أيضاً، أو هكذا يجب أن تكون. الحياة دورات متواصلة، لا تتوقف عند مفاهيم معينة وضعها أقدمون، سواء أكانوا من "السلف الصالح"، أم غير الصالح، وهذا ما عناه الإمام أبو حنيفة بقوله "هم رجال ونحن رجال" في إشارة إلى أن الفقه حركة حياة، وأن قراءتنا القرآن على أنه مصحف حياة وحركة، لا مصحف جمود، يخفف عنا أثقال الحياة، ويمهد لنا الطريق لبناء دولة قوانينها وأحكامها من زماننا المعاصر، من غير تأثيرات سلبية على الجواهر الكامنة في الآيات.

■■■

ربما تكون قد تساءلتَ أيها القارئ الكريم، عن سبب وضعي "علامات الازدواج"، حول كلمات مثل "الله" و"يسوع" و"النبي" و"موسى" و"الكتب المقدسة". لا أخفي عليك أن السبب هو إيماني المطلق بحرية الإنسان، وتحسباً من أن يظن أحد أنني أحاول فرض رأيي على أحد، أو أفرض وجود شخصيات لا يعتقد بعضنا بوجودها، وأضع "المسيح ومحمد" في صورة ليست في أذهان بعض الناس، فأنا ما زلت في الدرجة الأولى من سلّم المعرفة، ولي إيماني الخاص في الوجود والطبيعة، وما وراء الطبيعة والوجود، لكن ما أعرفه حق المعرفة، هو أن الناس يختلفون في شؤون الدين، كما يختلفون في شؤون الدنيا، وكما أن هناك مؤمنين، ومتدينين، هناك أيضاً ملاحدة ولاأدريون، ومنهم من لا يزال يبحث عن "الله"، وأسرار الكون في الكتب وخارج الكتب. المهم في الأمر وفي كل أمر، أن يسود الاحترام بين الناس، ولا يكفّر أحد أحدنا باسم الرب، أو يقتل باسمه، لأنه إذا كان يؤمن بربّ للعالمين، فعليه أن يعرف أن بين يدي هذا الربّ وحده يكون الحساب، لا في يد من يدّعون تمثيله على الأرض زوراً وبهتاناً.

قد يشك أحدنا في وجود شخصية تاريخية اسمها "المسيح ابن مريم"، وقد يعتقد آخر بألوهيته، ومنا من قد يراه "نبياً من أنبياء الله"، وقد يحسبه آخر رجلاً مصلحاً عاش في فلسطين الرومانية، وصلب لأنه خالف القوانين، وجدّف على عقائد بني قومه، وقد يعتقد بعض الناس أن موسى نبي، في حين قد يراه آخرون فرعوناً، أو رجلاً هارباً يستحق العقاب، لأنه قتل مصرياً في الطريق، أو شخصية خرافية لا وجود لها. الشي نفسه ينطبق على كل ما هو "مقدس" في رأي بعض الناس، لكنه ليس "مقدساً" في رأي بعضهم الآخر. لهذه الأسباب كلها وضعت "علامات الإزدواج"، عملاً بحرية الرأي، وليحكم كل قارئ بمنظاره. هكذا الحياة، أو هكذا يجب أن تكون، حواراً خلاقاً في طريق البحث عن الحق والحقيقة، وإلا توقف العقل وانتعشت الغرائز.

وضعت "علامات الازدواج" هذه أيضاً، حول كلمات مثل "مسيحيين" و"مسلمين"، وسبب ذلك، كما سبق وذكرت في مقال لي، اعتقادي بأن ليس كل من يولد في عائلة "مسيحية" هو مسيحي حقاً، وليس كل من يولد في عائلة "مسلمة" هو مسلم حقاً. الإيمان الصادق بالفعل لا بالقول، وليس كل من ذهب إلى الحج صار حاجاً بالروح، وليس كل من قال "يا رب يا رب يدخل ملكوت السموات"، كما جاء على لسان "المسيح" في الأناجيل. الإيمان العفوي الصادق، لا يتم من خلال طقوس جامدة، بل بالخروج من الدروب الضيقة إلى رحاب الإيمان الطلق، من الصلاة المحدودة إلى النجوى الكونية التي لا تحد، والتي لا تتقيد بلغة ولا بهيكل ولا بمعبد، ولا تتأثر ببيئة أو بموروث، ولا تعرف إلا التأمل والإيمان الخالص طريقاً إلى "السماء".

هذه الأسباب، وإيماني الشديد بالدولة المدنية كحل لا حل غيره، هو ما دفعني إلى توجيه هذه الرسالة إليكم يا "مسلمي" لبنان، فالدولة المدنية هي دولة القانون العام الذي يسري على الجميع، بغض النظر عن معتقد كل منا. هي الدولة التي فيها وحدها يتنامى الشعور الوطني الصادق، وينمو تعايش حقيقي وتتوالد محبة، وفيها وحدها تتلاحق الأفكار، وتتجلى العقول وتنفتح على حقول العلم والفن والمعرفة. لقد ولدت هذه الدولة في الغرب، وجاءت ولادتها بعد مخاض عسير، وصراع حاد بين العلم والجهل، بين التدين والإيمان، بين البصيرة والغيب، بين المنطق والغريزة، بين العقول النيّرة وصلف الحاكم، وحكم المقصلة ومنصّات المشانق. حاربتها السلطة الدينية الغربية باسم "المسيح"، وتحاربها في الشرق اليوم، قوافل من وثنيين جدد، تحت راية الإسلام و"نبي" الإسلام، وبأشد ضروب الجهالة والغريزة العمياء. لكن، كما جاء يوم، انتصر فيه النص الإنجيلي على السلطة الدينية والسلطة الزمنية في الغرب، سيأتي يوم قريب ينتصر فيه النص القرآني على السلطة الدينية والسلطة الزمنية في الشرق، وهذا النصر العظيم الهائل لن يتحقق، إلا في ظلال دولة مدنية إنسانية حرة.

القرآن لم يشر إلى دولة ولا إلى خلافة، ولا إلى حكم جمهوري، أو أميري، أو ملكي، أو مستبد، ولم يرسم آليات للحكم بالمعنى السياسي للكلمة، بل ترك الأمر شورى بين المسلمين، ومن حسن الطالع أنه تركه شورى، ليتسنى للناس اختيار النظام الذي يرتأون!

كما جاء يوم، انتصر فيه النص الإنجيلي على السلطة الدينية والسلطة الزمنية في الغرب، سيأتي يوم قريب ينتصر فيه النص القرآني على السلطة الدينية والسلطة الزمنية في الشرق، وهذا النصر العظيم الهائل لن يتحقق، إلا في ظلال دولة مدنية إنسانية حرة

رشة ملح

جواد الساعدي

تصفير العقل العربي

إعتاد العقل العربي بشكل عام أن يعيش على النشوة، نشوة الماضي أو نشوة الحاضر، لا فرق، نشوة السكر أو نشوة الصحو، لا فرق، نشوة الهزيمة أو نشوة النصر، لا فرق. هو عقل تحكمه عُقد التاريخ أكثر مما تحكمه متطلبات الحاضر ومقتضيات المستقبل، عُقد التاريخ المدسوس والناقص والمفقود والمزوَّر والمخفي والمؤوَّل بسوء أو بحسن نية. العقل العربي، الذي صار، كما قال المفكر العربي ياسين الحافظ، "كبرميل بلا قعر، لا يجمع ولا يراكم"، عقلٌ يحكمه التّيه والضياع. كلما تقدم الزمن، ازدادت فجوة التاريخ فاتسعت رقعة ضياعه وارتفعت شواهد عجزه. عقلٌ كفَّ عن الاستقراء والاستنباط فاسترخى على مخدة التلقي والتبعية والكسل. عقلٌ ترهبه كثرة "المقدسات" التي تحيط به كالأسلاك الشائكة. هو سجين ذاته، حبيس عطاءاته، يقتات على طحالب الجمود، يقتل بذور الحرية ولا يسمح لها بأن تنبت. خادم الشريعة، نقيض الحكمة، خصم التغيير، عدوّ التجديد، صديق الاجترار، وعبد الوعيد. عقلٌ إذا جلس صاحبه على كرسي أو خلف طاولة، توهم أنه يمتلك الدنيا، وإذا اعتلى منبراً أو صاح من مئذنة، توهم أنه يمتلك الدنيا والآخرة معاً. عقلٌ طغى عليه الأفاقون والدجالون وذوو العاهات الفكرية وأرهبه المتعطشون للدماء وحفارو القبور الجماعية. يبرر الجريمة في مكانٍ ويدينها في آخر، يحب الشطارة بمفهومها الاحتيالي ويستعيض بها عن الصدق والأمانة، يبهره الذكاء فيقدمه على الأخلاق والفضيلة، يطير بريشة المصلحة الفردية ويتعثر بجناحي المصلحة العامة، يتخلص من اقتناعاته بالحيل "الشرعية" ويعود إليها، متى شاء، بالحيل "الشرعية". ملتبس، يجانب الوضوح إن لم يتعمد الغموض، ينساق أمام التحريض وينهزم أمام الغرائز، تقوده الرايات وتطحنه الثارات، تأخذه الحميّة كل مأخذ وتسدّ عليه البداوة كل منفذ، مطية الغرور والتعصب والانغلاق والجهل بالقريب قبل البعيد. إذا أراد العَلي اختار التعالي الأجوف، واذا ابتغى مقاماً لبس ثوب الفطرسة. منتصرّ في ظاهره، مهزوم في داخله، أريحي سعيد على السطح، مأزوم في عمقه والجوهر. عقلٌ "لا توسط" عنده، فقد "الصدر" ولم يغادر "القبر". عقلٌ كهذا لا يمكن أن يتقدم إلى أبواب الحاضر أو يدق أبواب المستقبل من دون أن يجري تصفيره ليتخلص من نفايات الماضي وأحقاده والضغائن.

■■■

تجّار الهواء

ماذا لو استطاع أقوياء الناس الاستحواذ على الهواء واكتسبوا بالقوة حق تسويقه وبيعه، في قنانٍ كقناني الماء مثلاً. هل في استطاعة التلميذ الذاهب من البيت إلى المدرسة احصاء عدد القتلى الذين سيموتون اختناقاً، لأنهم لم يحصلوا في اليوم السابق على قنينة هواء؟ هل يتنازل المستحوذون عن "ملكيتهم" إذا رأوا القتلى في الشوارع؟

صانعو الحروب وصانعو الأسلحة، كما تجّارها؛ المستبدون مهما تعددت ألقابهم ومراتبهم السلطوية؛ الموهوبون بإطلاق الخطب النارية؛ المعتقدون بالتكليف الربّاني؛ الموهومون بامتلاك الحقيقة المطلقة؛ المزعومون من جنود الله وأنصاره وأحزابه وحركاته السياسية؛ هؤلاء جميعاً وغيرهم من الزبانية والمتاجرين بالمشاعر الإنسانية، هم كمن يستحوذ على الهواء، والناس تموت اختناقاً، في الشوارع.

■■■

الحرية للجميع

لا شيءَ أثمن من الحرية. كلامٌ مكرر يقوله الجميع، الظالم والمظلوم، ويسعى إليه الجميع، القاهر والمقهور، لكنّ بلوغه، من الجميع لا يمكن إلا بإيمان الجميع، أو الغالبية العظمى، بالتعددية، فكراً وممارسة، ولا يستقيم تطبيقه في البنى الإجتماعية والسياسية، ما لم يتم تطبيق قانون التعددية في البيت والمدرسة والشارع وكل مكان يجتمع فيه فردان، وصولاً إلى مؤسسات الحكم وأدواته التي يتشكل منها، مروراً بالإعلام والمسرح والشعر والموسيقى وكل ميادين الثقافة، وقبل كل شيء استقرار هذه "السنّة الكونية" في عقول رجال الدين وبثها من خلال الخطاب الديني الدعوي. جوهر الإستمرار والتقدم الفعال هو الإختلاف والتعدد. تحقيق الحرية للجميع لا يمكن بغير ذلك.

■■■

الإرهاب وثقل الأسئلة

تتباين ردود الفعل الأقليمية والدولية ويختلف حجم التغطيات الإعلامية ونوعها بين عمل إرهابي يحصد أرواح الناس في بغداد وعمل ارهابي يحصد أرواحهم في بيروت، وبين الاثنين وآخر في السعودية أو الكويت، كذلك بين عمل إرهابي في عاصمةٍ من عواصم النفوذ العالمي وبين آخر في مالي، نيجيريا، باكستان أو غيرها من بقاع الدنيا، ثم يسألونك: لماذا تختلف ردود الفعل على ما يحصل عندنا عما يحصل في باريس؟ الجواب: لو أن السياسة لم تستلب الإنسان، لو كان الرفض والإدانة من منطلقات فكرية مبدئية حضارية، لو كان الإنسان قيمة عليا عند الجميع، لو انتسبنا حقاً إلى الله واعتنقنا المحبة، لو حافظنا على صفائنا الروحي وابتعدنا عن الحقد والكراهية، لو لم يغلبنا التعصب وتجتاحنا الأنانية، "لو أنّا - كما يتمنى الشاعر سمير الشوملي- نغسل في القلب أيادينا، نخلع عنا ثقل الأسماء، يرحل منا الواحد في الآخر، نسري، دون حدودٍ في كل الأشياء..." لو أنّا هكذا، لما كان الإرهاب وما كان ثقل الأسئلة.

■■■

كلّن...

يتبرأ التكفيريون من خصمهم "التكفيري"، ويهاجم الطائفيون خصمهم "الطائفي". يدين الفاسدون خصمهم "الفاسد" ويلوم الانتهازيون خصمهم "الانتهازي". يسبّ الديكتاتوريون خصمهم "الديكتاتوري" ويطالب المجرمون بالاقتصاص من خصمهم "المجرم". يدين قادة الميليشيات خصمهم "الميليشيوي" وينتقد المتجاوزون على الدولة وقوانينها سلوك خصمهم "المخالف للدستور". كلّن، وليس على المستوى اللبناني فقط.

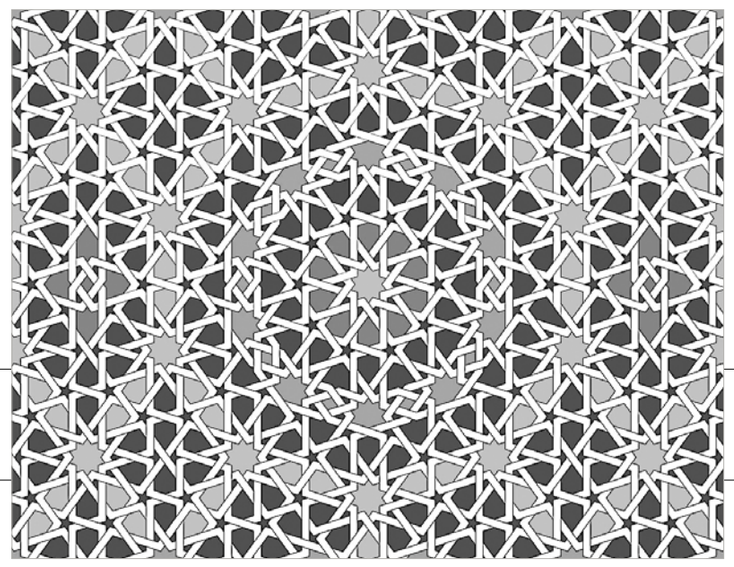

تعليق

سناء الجاك

مسكين لبنان

مسكين لبنان. حوّله شعبه الى علم من دون وطن. واحتفل هذا الشعب، كلٌ على طريقته، باستقلال لم يبق منه الا خواء واقف على حافة الانهيار. مَن أحبّه قتله، ومَن كرهه قتله. كأن في صيغته ما يدفع الى ابقائه في حال السكتة الدماغية، ليكتفي شعبه بمهارات متطورة للاحتفال مقابل الفشل الذريع والمستمر حيال تحقيق أهداف وطنية بناءة تستحق ان تقام لإجلها الاحتفالات.

رئاسة الجمهورية في ذمة كل القوى السياسية العاجزة عن القيام بواجبها. حكومة مشلولة لا يشفع لها ان رصيداً اخلاقياً يميز رئيسها. مجلس نواب ممدد لنفسه ولنواب صعدوا ذات انتخابات في بوسطة الزعماء، لا علاقة لمعظمهم بهذا الشعب الذي لا يحتاج بوسطة ليركب ويركبوا على اكتافه ويدور بهم راقصاً.

بلدٌ، كل مَن فيه يرقص من دون دف. سبب الرقص ليس مهماً. الإيقاع أيضاً لا لزوم لضبطه ما دام رقصه ليس وفق المتعارف عليه. لا سمة توحد خطواته او تنظّم الاختلاف بينها، ذلك ان كل جماعة ترقص وفق غرائزية توحي انها تهتز او تقفز لتتخلص من شعور دائم بالاختناق يقبض على أنفاسها، لتكتشف ان ايدي مَن يتولون أمرها هي الخانقة حناجرها.

بلدٌ يريد شعبه ان يستقل عنه، اليوم قبل الغد، مهما كثرت ادعاءات الوطنية القائمة مع حلول ذكرى الاستقلال التي تستحق الرثاء وربما البكاء.

المفاهيم والقيم والبديهيات ترقص بدورها وهي تتصارع. وتحسب ان رقصها فنّ وليس انتحاراً.

انتخاب رئيس للجمهورية عندنا أقل أهمية من التنافس الأهبل لدخول موسوعة "غينيس" بإنجازات خنفشارية.

الاستقلال الذي فقد كل محتواه، بقيت منه مظاهر فولكلورية مقعرة، لينصرف اللبنانيون الى صور تؤرشف الفراغ عن نشاطات لا تتناسب مع الخلل الذي نعيشه، لتكون الحصيلة تدشين أطول علم يصنع وطناً، ناهيك بأكبر منقوشة وأكبر جاط تبولة، او حتى ماراتون يقطع الطرق. المهم في النهاية الحصول على فوز لتوظيف الصورة.

كأن صيغة التفضيل والامتياز وسرقة الأضواء أهم من مجانية الطبابة والتعليم وتأمين مسكن ومستقبل وتأمين للشيخوخة.

مسكين لبنان، لأن شعبه لا يفكر الا في الانتصار على شعبه الآخر الذي يفترض انه شريكه في الهم والأزمات والمآسي.

لسان كل جماعة من جماعاته غير المتحدة يقول: حراكنا أفعل من حراككم، أو ديننا أفضل من دينكم ومذهبنا أصحّ من مذهبكم، وصولاً الى ان بيتنا أكبر من بيتكم، وابنتنا أجمل من أبنتكم وابننا أشطر من ابنكم. حتى ان مرضنا أخطر من مرضكم وكوابيسنا أفظع من كوابيسكم ومصائبنا اشد دموية من مصائبكم ونفاياتنا اوسخ من نفاياتكم. وقس على ذلك.

الأهم في لبنان المسكين، المحكوم بأفعال المفاضلة، ان كل فريق يصر ويستقتل ليؤكد للآخر أن حليفه، او من يستزلمه، هو أقوى من الطرف الذي يستزلم الفريق الآخر.

ايران أم السعودية، روسيا أم الولايات المتحدة والغرب، سوريا بشار الأسد أم "داعش".

اذا أعدمت إيران ناشطاً او سجنت إمرأة، نرى طرفاً يعظّم المسألة مقابل طرف ينفي وجودها أصلاً. واذا حكمت السعودية بالإعدام على شاعر او لم تشجع المرأة على القيادة، يتحول الطرف الناكر حقوق الانسان في إيران الى مدافع عنها وبشراسة، في حين من يعتبر المملكة أمانه يصمت صمت القبور.

ينسى الجميع انه كلما تعارك الاقوياء قربه انكمش على خيوطه المعقدة ولا أحد يسأل عنه او يعينه لينهض من كبوته مع انه طرف الهلال. الاصح انه نقطة انطلاق هذا الهلال الذي يخطط صانعوه لتحويله قمراً مكتملاً.

ينسى الجميع ان البلد مخترق من أقصاه الى أقصاه، بإسرائيل وسوريا وروسيا وإيران.

ولا يوم كأيامنا الكبيسة وأزماتنا الأكبس، مع ان لا حرب لدينا ولا سبب لنستدعي الحروب الينا، اللهم الا الاستزلام لهذا المحور او ذاك.

في الخلاصة، مسكين لبنان الذي ابتلي بمثل هذا الشعب للبراني المصر على الاغاني الوطنية، والمفصل كل ما في الوطن على قياسه ليكون الأول والأشطر والأطول والأوسم والأغنى.

رأي

رامي الريّس

هل قيم الحريّة والديموقراطيّة في خطر؟

كثيرة هي الأوصاف التي أُطلقت على حوادث باريس الأخيرة، ولكن مهما تعددت التسميات فإنها تبقى بمثابة أعمال إرهابية بربرية تمس بمفهوم الإنسانية ولا سيّما أنها مرتكزة على أفكار جهنمية إنتقامية وحشية لا تمت بصلة إلى أي دين أو فكر.

كثيرة أيضاً هي التساؤلات حيال المفاعيل التي ستتولد مستقبلاً عن العلاقة الملتبسة بين الشرق والغرب مع تنامي مشاعر الحقد والكراهية وتصاعد موجات العنصرية والتعميم المطلق الذي يرفض مذهباً أو ديناً فقط لأن بعض مَن يدّعون حمل إسمه يمارسون أبشع الفظاعات وأكثرها وحشية، وبعضهم ممّن لم يلمس أو يقرأ صفحة من هذا الكتاب أو ذاك!

لكن السؤال الأكثر إلحاحاً يتصل بمدى القدرة على التوفيق بين الحفاظ على الأمن لدى الدول الأوروبية التي تتعرّض للإرهاب وبين حماية القيم السياسيّة والإنسانية والأخلاقية التي ولّدتها الثورات الغربية وفي طليعتها الثورة الفرنسية. سواءً اتفق المرء مع السياسات الأميركية أو الأوروبية أو اختلف معها، لا يستطيع إلا أن يحترم المبادئ السياسية التي تجذرت مع الفكر الفلسفي السياسي الغربي وثبّتتها الدساتير الأوروبية وكرّستها داخل بلدانها بالفعل.

طبعاً، هذا لا يلغي على الإطلاق أن الغرب تغاضى لعقودٍ عن الشعارات التي رفعها مع حلفائه حول العالم وغضّ الطرف عن استبداد البعض منها وتوتاليتارية البعض الآخر. هذه الإزدواجية كانت لها آثار بالغة السلبية وخصوصاً في المجتمعات العربية التي عانت من الظلام والطغيان لعقود وعقود ولم يكترث بها الغرب فقط لأن مصالحه السياسية والإقتصادية مؤمنة مع الأنظمة القمعية من دون أن يرف له جفن حيال الحقوق المهدورة للنخب والشعوب في مواقع مختلفة حول العالم، وفي طليعتها المنطقة العربية!

بعد حوادث الحادي عشر من أيلول 2001، شددت الولايات المتحدة الأميركية إجراءاتها الأمنية في مطاراتها وبواباتها البرية ومختلف مرافقها ولا سيما أن الاعتداءات شكلت خرقاً أمنياً كبيراً لدولة اعتُبرت، ولا تزال، الأقوى في العالم. مع صدور قانون Patriot Act الشهير الذي يتعلق بتسهيل إجراءات التحقيقات والتنصت والتفتيش، يمكن القول إن جانباً مهماً من "الحرية الأميركية"، إذ صح التعبير، قد انتُهك وأصبحت معه تلك الحرية "أقل". مع إعلان باريس تطبيق حال الطوارئ لمدة ثلاثة أشهر للإنقضاض الإستباقي على أي شكوك مبنية على معلومات استخباراتية بالتوازي مع إجراءات أخرى، يمكن القول إن "الحرية الفرنسية" ستصبح، في مكان ما، "أقل" أيضاً.

إنها إشكالية معقّدة. المواءمة بين الحرية والأمن ليست بالمسألة السهلة ولا سيما عندما تنفتح الساحات الدولية بعضها على بعض، فردّ المجموعات المتطرفة من سوريا على التدخل الفرنسي في أفريقيا حصل في قلب باريس، تماماً كما انقضت الولايات المتحدة على أفغانستان رداً على ما حصل في نيويورك، وكما تدخل الطيران الروسي في سوريا لتحقيق مكتسبات في آسيا الوسطى، كما في أوكرانيا وشبه جزيرة القرم!

وإذا كانت العلاقة إشكالية بين الحرية والأمن، فإنها أكثر تعقيداً بين الحرية والدين، وهي مادة سجالية شغلت الفلاسفة على مدى قرون. في كتابه المرجعي، "الجهل المقدس: زمن دين بلا ثقافة"، يقول الباحث الفرنسي أوليفييه روا إن العلمنة والعولمة أرغمتا الأديان على الإنفصال عن الثقافة، ويعتبر أن "فشل الديني السياسي (إسلاموية، حكومة دينية) ينجم من أنه أراد منافسة العلمنة في ميدانها الخاص: الفضاء السياسي (أمّة، دولة، مواطن، دستور، نظام قانوني)". ويخلص إلى أن الجهل المقدس هو الإعتقاد بالديني المحض الذي يتبين خارج الثقافات، شارحاً لماذا أصبح الكهنة الأفارقة أشد المحافظين ضمن الكنيسة الأنغليكانية، ولماذا تحول العديد من المسلمين إلى المسيحية، وأسباب اجتذاب الحركات الإسلامية السلفية شباناً أوروبيين فضلاً عن النمو الذي تشهده البوذية في أوروبا، والبروتستانتية في كوريا الجنوبية، مؤكداً أن نظرية صدام الحضارات قاصرة عن تفسير هذه الظواهر ولا سيما أن "ظاهرة الإنتعاش الديني ليست تعبيراً عن هويات ثقافية تقليدية إنما هي نتيجة للعولمة ولأزمة الثقافات".

يا له من مفهوم عميق، ذاك المفهوم أو المصطلح المسمى "الحرية"، وهو أساس البنية السياسية والإجتماعية في المجتمعات الديموقراطية، وهو المبدأ الذي يرنو اليه ويناضل في سبيله الثوار والثورات.

كتبت حنة آرندت في مؤلفها الشهير، "بين الماضي والمستقبل" كلاماً مهماً حول الحرية وقالت: "الحرية هي في الواقع السبب الذي من أجله يعيش الناس في أي نظام سياسي على الأطلاق، ومن دونها لا معنى للحياة السياسية كحياة سياسية. إن السبب المبرر للسياسة هو الحرية، ومحكّها هو العمل". وهي الحرية التي وصفها جون ستيورات ميل بأنها "ملكوت الوعي الباطني".

على الرغم من أن حدة هائلة حصلت عبر التاريخ في إطار الصراعات على السلطة واتخذت كل أشكال العنف والدموية وحتى السادية (كما يحصل في سوريا اليوم حيث أن بقاء السلطة والنظام هما الأهم ولو على أشلاء مئات الآلاف من السوريين)، فإن الصراع حول القيم والمفاهيم لن يكون أقل حدة وضراوةً (وهو يعبّر عن نفسه في بعض الصراعات الدائرة حالياً) وقد اتخذ أشكالاً ومنعطفات جديدة ستتمخض عنها تحولات كبرى. فصراعات السلطة قد تكون محصورة ضمن إطار دولتي- جغرافي معيّن، لكن صراعات القيم لا تحدّها حدود هذه الدولة أو تلك، بل هي عابرة للقارات والمجتمعات واللغات. فكما أن المحافظين في اليهودية والإسلام والمسيحية قد يلتقون في رفض ظواهر معينة (المثلية الجنسية على سبيل المثل) إلا أنهم يتناقضون في قضايا جوهرية أخرى ليست أقلها نظراتهم المتبادلة بعضهم إلى بعض وفهمهم غير المكتمل أو حتى المشوه للتعاليم الدينية التي قامت في جزءٍ منها، بعضها على نقيض بعض، بخلاف ما قد يدّعي بعض علماء الدين أو الفلاسفة. فكما سبق للشيوعية أن قدّمت نفسها على أنها، في بعض جوانبها، نقيض فكري وفلسفي للمسيحية فاندلعت لها صراعات مشهودة مع الكنيسة و"الغرب المسيحي" إذا صح التعبير، فإننا ربما نشهد اليوم ولادة منظومة جديدة للتيارات المتطرفة لهدم كل المنظومات الأخرى التي تقف على طرفي نقيض مع مشروعها وأهدافها.

كان الأمل أن تتجه المنطقة العربية، رويداً ورويداً، ولو بأكلاف باهظة، نحو الحرية، وأن توسع مساحاتها في هذا الإتجاه، فإذا بالبلدان التي "منحت" مساحات واسعة للحرية تذهب رويداً رويداً نحو تضييقها. السبب غياب الوعي والإبتعاد عن الحرية والمسؤولية. إنه الجهل والفقر والقهر التي ولّدتها الديكتاتوريات العربية التي تغاضت عنها الديموقراطيات الغربية! إنه الثمن الذي يَدفع اليوم من كل أبناء الكرة الأرضية نتيجة عدم انتشار مبادئ الحرية والعدالة الإجتماعية والديموقراطية. فكم أصبحت ضيقة هذه الكرة الأرضية!

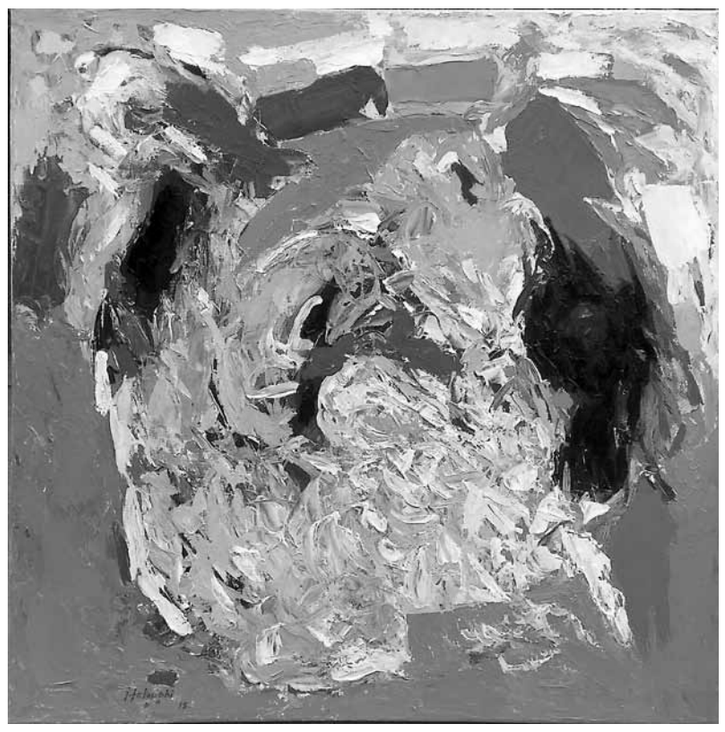

معضلة التراث والمعاصرة في الفكر العربيّ الراهن

طارق زيادة*

لا تزال إشكالية التراث والمعاصرة تخضّ الفكر العربيّ الراهن، وتلقي بثقلِها على الأوضاع العامة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية للعرب جميعاً، إذ نراها ثاويةً عند كل منعطف من منعطفات حياتنا، تؤرق علينا وجودنا وتحيله إلى معضلة مأسوية، وتعطّل نهضتنا، وتفسح المجال للوقوع في نكسةٍ إثر نكسة، ونكبةٍ تلو نَكبة، من دون أن نستطيع الخروج من المستنقع الذي نقبع فيه إلى آفاق المساهمة في الحضارة الإنسانية، محاولين تقليد التراث طوراً، وتقليد الغربنة طوراً آخر، من دون أن نبتدع طريقنا الخاص للولوج إلى المعاصرة على ضوء من معطيات واقعنا.

أولاً: تقليد التراث

الواقع أنه إذا حلَّلْنا مفهوم التراث عند عرب "النهضة" نجد أنه ينطوي على معنيَين متداخلَين: الأول معنى "الأصل" القائم بذاته كقيمة موضوعية والموجود هناك في التاريخ (في الماضي) موصولاً بالحاضر ومتداخلاً فيه، والذي تنبغي "العودة" إليه والأخذ منه والاستناد إليه في نقد الحاضر والانطلاق إلى المستقبل. الثاني معنى الهوية الثقافية الذاتية للأمة العربية المعرَّضة للانمحاء، التي تجد في التراث "أوالية" دفاع ذاتي ضد التحديات الخارجية. هكذا يضحى التراث في آن واحد "قيمة موضوعية" موجودة بذاتها يَستنَد إليها للانطلاق نحو المستقبل، كما استندت النهضة الأوروبية إلى الفكر اليوناني – الروماني، و"قيمة ذاتية" من أجل إثبات الذات العربية الراهنة وتأكيد وجودها. مشيرين إلى أن الأمم الأوروبية إبّان نهضتها كانت قد تخطّت مرحلة الخطر الخارجي بانكفاء هجمات شعوب الشمال وانكفاء هجمات العثمانيين، أي لم تكن معرَّضة للغزو الخارجي كما هي حال الأمّة العربية اليوم.

هنا تبرز الإشكالية الأولى في مفهوم التراث، إشكالية التماهي بين الموضوعي والذاتي والالتباس والاختلاط بينهما، فيصبح التراث بالنسبة إلى الشخصية القومية ليس موضوعاً قائماً بذاته في الإمكان تحليله وتشريحه وتفكيكه ونقده، بل جزء من الذات العربية المعرَّضة للهجمات والواجب الدفاع عنها، وهكذا يتملّكنا التراث بدل أن نمتلكه.

وإذا كان التراث، هو حضور الأصل، الأب (السلف) في الابن (الحاضر، الخلف)، أدركنا الإشكالية الثانية التي أشار إليها الدكتور محمد عابد الجابري الناجمة عن تكرار التراث بأدواته المنهجية والمعرفية، وأدركنا غياب القطيعة المعرفيّة مع التراث في الفكر العربي السلفي والأصولي، هذا التكرار الذي يجعل النقل أساس العقل، والعقل محدود ومربوط كما في "عقل الناقة أي ربطها" ويجعل القياس على الأصل الأداة المنهجيّة الوحيدة، ويحصل قياس "الحاضر على الماضي" و"الغائب على الشاهد" فيسقط الفكر في "التقليد" ويضحى تكراراً وإعادة للتراث في حاضر جامد هو نسخة باهتة عن الماضي المنقضي، بدل أن يسِمَ الفكر بطابع النظرة الكلية والشمولية المبدعة الخلاّقة التي تعالج واقعاً حيّاً وتضع الحلول لقضاياه ومشكلاته وتتصدى بالنقد للتراث ذاته، مجريةً قطيعة معرفية معه على ما قاله المفكر المصريّ الدكتور حسن حنفي.

تترتّب على ذلك إشكالية ثالثة ناجمة عن غياب الحسّ التاريخيّ. فالنظر السلفيّ والأصوليّ يفكّر في قضايا الحاضر كأنها واقعة خارج التاريخ، فهو فكر غير تاريخي يهمل المعطيات الواقعية الراهنة جميعاً ويحاول أن يعيد تجربة الماضي، الذي يعتبره كاملاً، لتطبيقها على الحاضر المختلف بكل أبعاده، فتأتي حلوله غير واقعية كأنها من عالم آخر، متجاهلاً أن ما عبّر عنه السلف باسم "أسباب النزول" لهو في الحقيقة أسبقية الواقع على الفكر، كما أن ما عبّر عنه القدماء باسم "الناسخ والمنسوخ" دليل على أنّ الفكر يتحدَّد طبقاً لقدرات الواقع وبناءً على متطلّباته. كما أنّ هذا النظر السلفي انتقائي، فحين يذهب الخليفة عمر بن الخطاب إلى حدّ وقف العمل بنصوص قرآنية واضحة (حدّ السرقة) وإلى مخالفة سنَّة نبويَّة ثابتة (توزيع قسم من الغنائم لتأليف القلوب) مجتهداً لمواجهة تحديات عملية وفكرية جديدة، فهذا دليل عبقريَّته في فهم روح الإسلام وجوهره. أمّا عندما تتصدّى المعتزلة لإعمال العقل في مواجهة تحديات فكرية وعملية جديدة، فإن ذلك يشكل انحرافا وتشويها وفقاً لهذا النظر الانتقائي.

إنّ هذا النظر يكرر الاختيارات النمطية القديمة من دون البحث في كيفية نشوئها والأغراض التي خدمتها، كأن التراث جسم ميت وجثة هامدة بلا واقع وتاريخ أو حياة أو عصر معين، ولا يهتم هذا النظر لتغيُّر الظروف القديمة وقيام ظروف جديدة تتطلب إعمال العقل للوصول إلى اختيارات بديلة، بل إنه يشوّه الأنماط القديمة ذاتها مما يسيء إليها أيضاً.

إنّ هذا النظر هو رهين عقيدته الايديولوجية التقليدية يريد إعادة تجربة الماضي من دون تفاعل مع الواقع الحيّ إلا أنّه يرضى من اتباعه استهلاك منجزات الحضارة الغربية المعاصرة رغم وقوعهم في ازدواجيَّةٍ انفصاميّة تجعلهم مجبَرين على تبرير ما يقومون به من أعمال مغايرة لأسس عقيدية يتظاهرون بالتمسك بها، وتجعل تفكيرهم غير متماسك. لا يمكن مثل من يعاني هذه الازدواجية الانفصامية، أن يكون عنصراً فعّالاً في أي نهضة حقة، إذ لا يمكن الفصل بين منجزات حضارة ومنهج تفكيرها إلا لمن يريد أن يعيش على هامش تلك الحضارة غير مشاركٍ فيها ولا مُبدِع ولا مُنتِج ولا ناقد لها نقداً صحيحاً وعميقاً وإنما مجرَّد مستهلك، وهذا هو مضمون الإشكالية الرابعة.

ثانياً: تقليد المعاصرة

إذا كان السلفي مسكوناً بالتراث، فإن العربي "المتعصرن" مسكون بالحاضر، منبتّ الجذور عن تراثه كأنه فاقد الذاكرة، إلا أنَّ هذا لا يمنع أنَّه تقليديّ، سلفيّ، من نوع آخر، يكمن مثاله السلفي في النموذج النهضوي الغربي فهو "متغرّب"، ويمكن هنا مقاربة اصطلاحَي الاغتراب، بمعنى الاستلاب والتغريب ومقاربة كلمتي "متغرّب" و"مستلب".

يظن "المتعصرن" أنَّ النزوع الحضاريّ الغربيّ في أن يكون مركزياً وعاماً وشاملاً للعالم يبيح له أن يتماهى مع هذه الحضارة العالمية ولو أنه يعيش على هامشها، يستفيد من منجزاتها من دون أن تكون له فيها مساهمة تأخذ خصوصيته في الاعتبار. فهو كالسلفيّ مقلّد وتقليديّ ومستهلك. هذا هو مضمون الإشكالية في أن العربيَّ "المتعصرن" يهمل ذاتيته (خصوصيته) لصالح المركزية الحضارية الغربية العامة (الموضوعية)، ظناً منه أن مجرد وجوده في هذا العصر يتيح له أن ينتمي إلى هذه الحضارة المعاصرة، متناسيا أنها وليدة معطيات تاريخية اجتماعية واقتصادية وسياسية وثقافية ودينية معينة، مجرّباً إدخال واقعه الخاص في القالب المرجعي الجاهز من دون اعتبار لخصوصية هذا الواقع، متخذاً المعاصرة كأيديولوجيا (مفهوم التقدم)، فتأتي النسخة باهتة يابسة لانقطاع نسغ الحياة فيها.

ندلّل على هذه الإشكالية بنماذج متعددة:

أ- نموذج المفكرين العرب الذين تابعوا المستشرقين في النظر العصري للتراث العربي الإسلامي، فأتى نظرهم تابعاً مقلّداً، على صعيد الرؤية والمنهج، إذ الاستشراق ينظر إلى الذات من الخارج. وقد صاحبت الظاهرة الاستشراقية الظاهرة الاستعمارية في مرحلة أولى وكانت وليدة المركزية الأوروبية التي تجعل من التاريخ الحضاري الأوروبي "التاريخ العام" للفكر الانساني "الموحّد المستمر" وتعتبره "المرجع" وما عداه هامشياً، ذاهبة إلى حد اعتبار "العقل السامي" عقلاً غير قابل للتفلسف.

بدل أن ينظر الباحث العربي هذا إلى تراثه من الداخل، تابع المستشرق ذا النهج التاريخي، فكانت الفلسفة العربية امتداداً "منحرفاً" أو "مشوهاً" للفلسفة اليونانية لأنه لم يأخذ في الاعتبار الوظيفة الفكرية التي لعبتها الفلسفة العربية الإسلامية في البناء الحضاري من حيث أنها كانت ضرورة ماسّة للتوفيق بين العقل والنقل والوحي والفلسفة في مرحلة تاريخية معيَّنة لها ظروفها ومعطياتها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية.

هناك بحّاثة عرب تابعوا المنهج الفيلولوجي للمستشرق الذي كان يلتمس فيه أصول الأفكار في المجال الأوروبي "الآري" ذي الجذور اليونانية والرومانية والمسيحية القروسطية الغربية، بدل أن يتلمسوا هذه الأصول في المجال العربي الإسلامي بعقل ناقد فاحص.

حتّى أصحاب النظر الذاتي الفردي من المستشرقين الذين تعاطفوا مع بعض الشخصيات الفكرية العربية الإسلامية من مثل تعاطف ماسينيون مع تجربة الحَلّاج وتعاطف كوربان مع تجربة السهروردِيّ. فإنّهم كانوا مرتبطين بمنهجهم الفكري الغربي حتى كادوا أن يردّوا روحانية هذه الشخصيات العربية الإسلامية إلى أصول يهودية ومسيحية وفارسية وهندية، وأخيراً – وهذا بيت القصيد – إلى أصول يونانية، كأنهم يغفلون إعطاء وحدة الحضارة الإنسانية مقامها السامي، هذه الوحدة التي ساهم بها العرب بقسطٍ كبير.

ب- نموذج عصري آخر هو نموذج المفكرين العرب الذين يبحثون في "سرّ" التقدم الغربي فيجدون مرجعيَّتهم السلفية طوراً في "الديموقراطية" وطوراً في "القومية والوطنية" وطوراً في "التصنيع" وطوراً في "التعليم"، فيقدّمون النماذج الجاهزة من دساتير وقوانين وأنظمة وتجارب (الوحدة الإيطاليّة، الوحدة الألمانيّة)، يرون فيها السبيل إلى الخروج من التخلف إلى التقدم بحرق المراحل، كأن النموذج الغربي قد وجد هو الآخر دفعة واحدة ولم يكن وليد سيرورة تاريخية طويلة، على ما لاحظ الدكتور جورج طرابيشي، وكأنّ في الإمكان زرعه من دون أدنى اعتبار لقابليَّة التربة العربيّة لذلك الاستزراع. هذا النموذج يعطي الفكر بحدّ ذاته قدرة تغيير الظروف الاجتماعية معلّقاً أهمية بالغة على الفرد المبدع كعضو في نخبة لتغيير المجتمع.

ج- نموذج عصري آخر، مقلّد وتَقليدي، يفصّل الواقع التاريخي على القوالب النظرية هو نموذج الفكر اليساري العربي (القومي والأممي)، وهو لا يتبع المنهج الديالكتيكي كـ"منهج للتطبيق"، بل كـ"منهج مطبق"، فتنتهي القراءة اليسارية العربية للتراث إلى "سلفية ماركسية" تكرر الموضوعات المركسية العامة بديلاً من الدراسة التاريخية العيانية.

إنّ هذه النظرة إلى التراث تجعل من تاريخ الفلسفة العربية حاضرها الفلسفي الراهن، مصطنعةً تاريخاً للفلسفة متلائماً مع المقتضيات الايديولوجية الراهنة، محاولة أن تكشف في خطاب الأقدمين عن خطابها هي، فتؤدلج التراث وتسيّسه بدلاً من أن تعقِلَه كما يوضح الدكتور علي حرب، فإذا استعصى التراث على "المنهج المطبق" واستغلق، كانت العلّة فيه وليست في المنهج.

ثالثاً: الفكر العقلاني النقدي طريقنا الخاص الى المعاصرة

يقيناً أننا لسنا في حاجة لنؤكد ثراء التراث العربي الإسلامي، ولا غنى الحضارة الغربية المعاصرة، ويقيناً أنَّ الإشكالية التي نعانيها ليست فيهما بحد ذاتهما، وإنَّما الإشكاليَّة في الفكر العربي الراهن الذي تبيّن لنا أنه سلفي تقليدي ومقلّد، تالياً غير مبدع ولا منتج، ويتكوّن هذا التقليد من شقَّين أحدهما "نكوصي" يقف عند التراث، وثانيهما "إبدالي" يتشبَّه بالغير.

السؤال الذي يَطرَح بداهةً: كيف السبيل إلى الخروج مما نحن فيه والولوج إلى مكانة فكرية ثقافية وحضارية للعرب في العالم المعاصر؟

ليس من وظيفة هذا المقال الوجيز أن يجيب عن السؤال المهم الذي طرحه "النهضويّون" العرب على أنفسهم: لماذا تخلَّف المسلمون وتقدَّم غيرهم؟ إذ الجواب أبعد من حدود الإشكالية التي حاولنا معالجتها، وإن كنّا لا نودّ الوقوف عندها من دون محاولة تقديم تصوُّر مختصر لحلّها.

نسارع إلى القول بأنّ الفكر هو نتاج عملية جدليَّة بين العقل والواقع. وأنّ الواقع متّصل بالتراث وجزء من العصر، وبدون الوقوع في دعوة انتقائية أو توفيقية تلفيقية مصطنعة بين التراث والمعاصرة، لن نستطيع الكشف عن الحقيقة، كما دلَّت التجربة، إلا بأن يكون الفكر العربي عقلانياً نقدياً يعيد النظر في المعطيات فيقف من نفسه موقفاً فاحصاً، وإلا وقع في "الصحوة الكاذبة" أو "الوعي الخاطئ" أي لا يقوم بأيّة عودة نقديّة على ذاته، ولن يكون ذلك إلا بتحديث هذا الفكر وتجديد أدواته وصولاً إلى تشييد ثقافة عربية أصيلة ومعاصرة في آن واحد تقوم على البحث في التراث كموضوع مفصول عن الذات، قابلة نصوصه للتفكيك في ضوء تحليل عقلانيّ تاريخيّ لماضي العرب وحاضرهم ومستقبلهم المتوقَّع، يَعنى بربط هذه النصوص بسياقها التاريخي الزمني الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والثقافي، تالياً بيان الوظيفة الايديولوجية التي لعبتها هذه النصوص على اعتبار أنَّ التراث نتاج للظروف الاجتماعية في عصره وهذا كله يدخل في سياق ما يُسمّى بالقطيعة المعرفيَّة مع التراث، تمهيداً لأن يكتشف هذا الفكر مرتكزات عقلية له (حتى في التراث) ينطلق منها للتأثير والتأثر (التفاعل) بالواقع (المجتمع، الطبيعة) بعد تحليله، إذ الواقع العربي كما هو لم يخضع للتحليل الضروري، وصولاً لتغييره في عملية جدليَّة يغتني فيها الفكر بقدر غنى الواقع، ويتحوّل الواقع من الوهن الراهن إلى التراصّ المرتجى.

* نائب رئيس المجلس الدستوري

ثلاث لوحات لجوزف فالوغي.

ذكريات

إبرهيم الزيدي

الرقة التي يتحدثون عنها

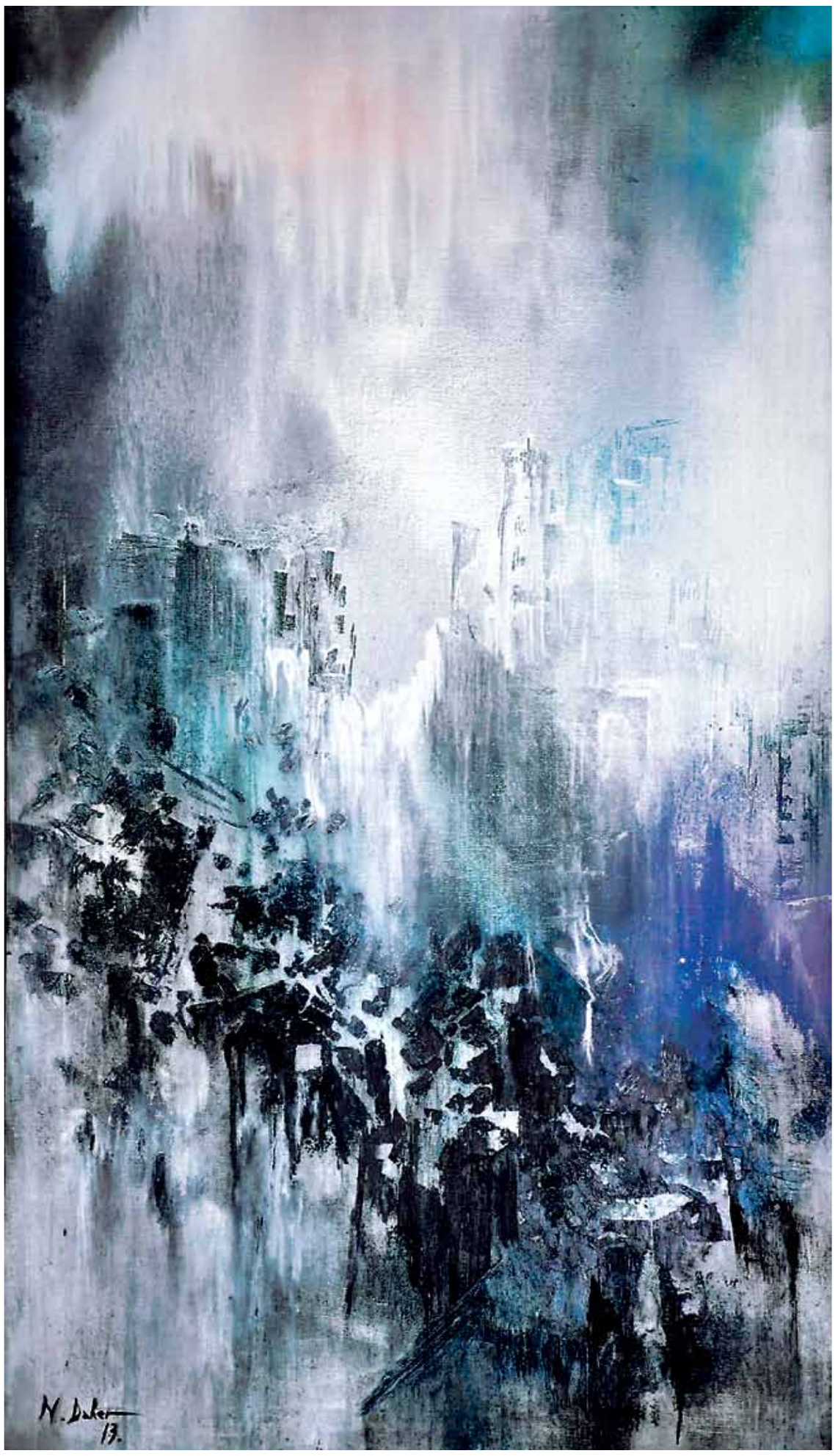

لوحة لنزار ضاهر.

الرقة... وما أدارك ما الرقة؟ تلك المدينة التي أصبحت "موديلا" يتفنن قادة العالم في رسمها، كل دولة تنظر إليها من زاوية مصالحها، وترسمها بطريقتها الخاصة! هي لاذت بالصمت ككل السبايا، خشية أن ينفضح مآل شرف البلاد المودع بين ساقيها. أما نحن "الرقاويين" سابقاً، فأصبحنا ورثة الذكريات التي لا يزال شجرها أخضر. هنا كانت مكتبة "الهيثم" حيث كنّا نشرب الشاي، ونحتسي سيرة الكتّاب المشاركين في مهرجاناتنا الثقافية المتلاحقة. هناك كان متجر "كشمير" الذي سرق رصيفه من عمرنا أجمل الأمسيات، حيث كان السابق يترك للاحق مقعده، وما تبقى في فنجانه من قهوة باردة، ويستكمل حديثه عن مستقبل الثورة واقفاً. من ذاك الشارع يتفرع الطريق المؤدي إلى "ستوديو يوسف دعيس" المقر الرسمي لمناقشة القصة القصيرة، وما ستؤول إليه قصيدة النثر. في نهاية شارع "تل أبيض" عيادة الدكتور محمد الحاج صالح، الشقيق الأكبر للمعارض والمفكر السوري الشهير ياسين الحاج صالح، حيث المقاعد الوثيرة، والحوارات التي تبدأ أدبية، ولا تلبث أن تتحول إلى سياسية. لم يكن ريف المدينة أقل ثقافة من مركزها، لا بل كانت الإضافات الحقيقية غالباً ما تكون نتيجة ذلك الفضاء، فالدهشة التي تركتها مجموعة الدكتور إبرهيم الجرادي، "رجل يستحم بامرأة"، لا تزال حيّة في ذاكرتي، ولم يكن المضمون، والصور التي احتوتها تلك المجموعة أقل إدهاشاً. أما مجلة "الناقد" التي كانت تصدر عن "دار الريس للنشر"، فقد كان الفتح المبين في أعدادها الأولى للشاعر عبد الحميد الخلف الإبرهيم، أحد أهم الذين كتبوا في الأدب السياسي الساخر، وكان أحد المراجع الأساسية لخلافاتنا النحوية، وإشكالات العروض وجوازاته. ثمة جيل سابق، خير من يمثله الدكتور عبد السلام العجيلي، الذي عاصر الحراك الشبابي ثقافياً، إلا أنه لم تكن له مساهمة فيه، فقد كان فرق العمر بيننا وبينه كبيراً، وكذلك الشاعر والمؤرخ مصطفى الحسون، "بحتري الرقة"، صاحب المعارضات الشعرية المهمة، الذي بفضله أعيد الاعتبار إلى سور الرقة الأثري. في الطرف الآخر من المشهد، ثمة مفاخرات قبلية تدور في فلك الحوادث التاريخية التي شهدتها الرقة، أهمها ما حدث في 4 تموز من العام 1941 حيث أعلن غفان التركان أحد أعيان الرقة، تمرده على الاحتلال الفرنسي، وأقام حكومة الرقة، "الدولة الغفانية"، التي استمرت ليوم واحد، حيث أقدم مع رجاله على إحراق السجل المدني، "النفوس"، وكذلك الوثائق الموجودة في السرايا القديمة، ثم تابع تقدمه لاقتحام الثكنة، المقر الرسمي للحامية الفرنسية، فتصدت له القوات المرابطة هناك، وأبعدته عن الرقة، فعبر الفرات في اتجاه قرى الكسرات، فأقدمت القوات الفرنسية على ضرب القرى المواجهة لمدينة الرقة، وقبض الفرنسيون على خمس عشرة امرأة من نساء المنطقة، وأودعن سجن السرايا للضغط على غفان ورجاله، فاقتحم الشيخ محمد الفرج السلامة شيخ عشيرة الولدة السجن وأفرج عنهن متحدياً قوات الاحتلال الفرنسي. ثمة قبائل أصبحت انتخابات "مجلس الشعب"، وعدد الأصوات التي حازها مرشح هذه القبيلة أو تلك، هو الحامل الموضوعي لفخرها! في العام 1973 افتتح سد الفرات، الذي أصبح قبلة لآلاف العمال والموظفين، من المحافظات السورية، فكانت الرقة خلاصة سوريا، اجتماعياً وثقافياً، فتعددت اللهجات والأزياء ولم يعد أحد يشعر بالغربة. فقد وجد فيها الجميع ملاذا لأحلامهم البسيطة، التي عصفت بها رياح اليأس، بعدما دخلت سوريا غرفة العناية المشددة. آنذاك كانت الحقائق مثقلة بماكياج الشعارات، تلك الجعجعة التي عاشت عليها سوريا منذ العام 1963، ولم تر طحيناً! وقد أدرك الناس ذلك، فانصرفوا في الآونة الأخيرة إلى الممكن من الأحلام، وقد كان حلم كتّابها أن تكون الرقة "عاصمة للثقافة"، فكانت أول تظاهرة ثقافية دولية في العام 1981 التي حملت عنوان "الندوة الدولية لتاريخ الرقة" وأسست لحراك ثقافي مميز، استمر حتى العام 2005، حين بدأت المرحلة الثانية من ذلك الحلم، فكان مهرجان الشعر العربي الأول، الذي استمر لمدة 6 سنوات، وتزامن مع مهرجان للرواية أيضا، وملتقى دولي للفن التشكيلي، والكثير من الندوات والأمسيات والمحاضرات، وقد كان التركيز في تلك الأنشطة الكبيرة بإسمها، وتكاليفها، على ما تحققه إعلامياً، فاستقطبت الكثير من أقلام الصحافيين، ونالت الرقة حصتها من المديح المجاني بذريعة تلك المهرجانات، إلاّ أن تلك الأقلام لم تلامس واقع حال المدينة، ولم تطالب باحتياجاتها البنيوية، فانتعلت الرقة بؤسها، ومضت لتأخذ مكانها إلى جانب أخواتها من المدن المنسيّة في سوريا الحديثة!

شعر

جوان سوز

تأتين

(إلى لا أحد)

تأتين
وأنا متعبّ بلا عمل.

تأتين
وفي جيبي بعضّ النقود
وقد شربْتُ الكثيرَ من القهوة في انتظارِكِ
ودخّنتُ كلَّ سجائر العالم
حتى صار قلبي منفضةً لها.

تأتين
وأنا جالسٌ مع أحدِهم
أتناول طعامَ الغداء
فأشبع عند رؤيتكِ
وأهرب إلى باب المقهى
لأستقبلكِ
وأترك ضيفيَ القادمَ من الغرب
وحيداً إلى الطاولة مع كأس الشاي.

تأتين
وتجلسين بجانبي كعادتكِ
نشرب قهوتَنا معاً
ونلتقط بعض الصور
ثم تتحدثين إلى أمي
وتشتكين من لهجتها.

تأتين
فأمضي باكراً
كأنَّكِ لم تأتي
وأنتِ تنتظرين شخصاً آخر
سيأتي من بعدي.

■■■

تأتين
الخوفُ ينتحر على وجهكِ.

تأتين
بعد ألفِ كذبةٍ على أهلكِ
وألف روايةٍ مخزية لوالدتكِ.

تأتين
فتهتزّ الأرض تحت قدميكِ
ويبتسم لكِ الرصيفُ والشارعُ وسائق التاكسي.

تأتين
وينظر إليكِ الجيران
ويرحبّ بكِ المقهى وكلّ الزبائن.

تأتين وينظر الجميع إليكِ
وتمدّين لي يدَكِ
لأشتمَ كلَّ هؤلاء
وأقبّلكِ.

■■■

تأتين
وفي يدكِ هاتفُكِ المحمول وحقيبةٌ صغيرة.

تأتين
وفي معصمكِ إسوارةٌ ذهبية
كانت ستّبَاع ألف مرةٍ في أزماتي المالية.

تأتين
وأنتِ ترتدين أجملَ ما لديكِ من ثياب
وفي قلبكِ كثيرٌ من الحبّ.

تأتين
وتقتربين مني وتحتضنينني ككلِّ مرّة
وأنتِ تدخلين إلى المقهى.

تأتين
وتجلسين بجانبي مرةً أخرى
وتطلبين قهوتَكِ الحلوّة.

■■■

تأتين
بقبلةٍ واحدة،
فأقف في مكاني
وأمسكُ بكفّكِ الصغيرة
لأقولَ لكِ أحبُّكِ
كما أفعل كعادتي.

تأتين
لكن هناك ضجيجٌ في الخارج
يمنعني من الاعتراف بهذهِ الحقيقة.

* شاعر وصحافي كُردي سوري.

شعر

قزحيا ساسين

التلج قنديل المسا

كنزة هوا

بزكّر... بـ ضيعتنا التلج ضَوَّا المسا
وهونيك كنزه حامِلا حبل الغسيل
يمرق هوا بردان... ويِشِدّا بـ قسا
وإيدو الطويلِه تفوت بيـ كِمّا الطويل
مدري العمر من قلب صّوفا عم يشيل
أو رح يموت البرد... بدّو يلْبسا.

■■■

ملعقة الدهب

لا... مش دهب... يللي إلو ميزان
ولا بْ لمعتو... ولا بْ رَنّتو راضي
...
ولا ملعقَه شفتا دهب رنّان
إلاّ اللي صَحْنا حَبّتو مليان
وأكتر بَعد... هَوّه وصحن فاضي.

■■■

صيّاد... بيطوّل العمر

عُشِقت العنب صيّاد... عمري يزيد
وإبقا غزال الكرم... كلّ نهار
بيلَبّسو الصيّاد عمر جديد
أوّل قَوس شفتو من الفخّار
وأوّل سهم غَلغَل بـ صدري... نبيد.

■■■

أرز عالموج

يا هالسفينِه لْ جَبْهتا تعَلّي
عالموج... شو جَبْهَه؟!... أرز عَ جبال
يا رَيتني متلِك... أنا مْنَللي؟
عا دعستِك شفت الهوا عتّال
شراعِك عا كتفو حاملو سَلّه.

■■■

قَوس... بْ سهمَين

لْ بيشوف وجّك... والعيون تْنَين
بيقشّع نهار اللي إلو شمسَين
وبْيسأل... وعَينو بـ عَين الشمس:
كِف شكل قادر يطّلع من القَوس
بالوقت زاتو يا مرا... سَهْمَين؟!

شعر

ميسون شقير

وصايا غيلان المالحة

1
غداً يا أمّي
سأصبح مشهوراً جداً
مثلما قالت لكِ العرّافة حين كنت في أحشائكِ
كل الآباء سيضمّون أبناءهم بقوة بعد مشاهدة صورتي
سيقف قلب كلّ أمّ على رؤوس أصابعه
وحدكِ لن تستطيعي مشاهدتي وأنا أصير نجماً
فأنتِ ستكونين مشغولة
بأغنيتي ما قبل النوم.
2
أمّي
أرجوكِ
قولي لهم
أن لا يضعوا الألعاب التي قلتِ لي إنها
ستنتظرني في البلاد البعيدة
معي في هذه الغرفة
البرد شديد هنا
والألعاب
لن تتحمل.
3
لماذا يا أبي ستعيدني إلى قريتنا مرةً ثانية
سيسبقني الأطفال الذين كانوا معنا على ذلك
القارب
وسيصلون إلى البلاد الخضراء قبلي
وسيحصلون هم على
كل الألعاب.
4
أمّي
لو ربطني بحبل
يا أمّي
لو ربطني بحبل!

5
لقد وعدتكِ بأن لا أبكي
لكني صرختُ يا أمّي
حين بدأ الماء المالح يدخل إلى فمي وأنفي
صرختُ كثيراً
لكن أرجوكِ يا أمّي
لا تعاقبيني
ولا تحرميني من الألعاب.
6
أمّي ها قد هدأ كل هذا الضجيج
وأنتِ أخيراً
سترتاحين يا أمّي
من خوفكِ
عليَّ.
7
لقد رأيتُ السمكات يا أمّي
لقد كانت حقيقيات
كانت تسبح تحتي
السمكات الصغيرات كانت تسمع حكاية أمها
وتنظر إليَّ.
8
أمّي
الأمواج اللطيفة يا أمّي
بقيت تهزّ لي حتى تأكدت أني نمتُ بعمق
قبل أن تضعني على
هذا الشاطئ.
9
أخي
أرجوك
افتح لي الباب
المكان ضيّق جداً هنا
وبارد
لقد انتهت اللعبة
وأنا أعلن الاستسلام.
10
أعدكِ لن أكسر ألعابي
لن أبكي مرةً أخرى كي تحمليني
ولا كي تعيديني إلى بيتنا
لن أصرخ أريد لعبةً جديدة
فقط يا أمّي
لا تتوقفي عن الغناء
غناء ما قبل
النوم.

نص

إبرهيم اليوسف

بحر إيجة

قبل أن يتنفس الصعداء ويحطّ الرحال قليلاً في محطته تلك، قرب وجه رجل البوليس اليوناني، ثمَّة فخاخ من لعاب ظامئ في انتظاره. ثمة فخاخ هائجة بين ساحلين لا يزالان غارقين يمارسان فانتازيا الذهول. ثمة فخاخ من ماء لم يرتو من بخار الوجوه، والقافلة الطويلة ترتطم بالأصداء المجفلة ورفرفات جناحي طائر المساء. روح المسيح تعبر الآن. روح المسيح تعبرك الآن. قبل قيامتها، كما أمس وغداً. حافيةً إلا من حزمة أحلام وهيام، ورسائل تمحوها هستيريا الأمواه. كن له، إذاً، راحة يدِ أبٍ يا إيجة! كن له، إذاً، صراطاً من طمأنينة وغفران. كن له أغنية بحار، وهو يحار في اصطكاكة أسنان الموج. كن له هدهدات أمّ وتلويحة حبيبة تتكئ على دقات ساعة الجدار، نغوة نجمة تمور في دمها معلَّقة في سماء ذلك الليل الأعرج. كن له صدى صورةٍ وطنٍ قريب وبعيد. كن له خرزةً زرقاء جميلةً في خيط سيرته وهو يعبرك مرةً واحدةً. مرةً واحدةً... وأخيرة!

نص

رفيدا الخبّاز

أنا التي نهبني الحلم وأفقدتني الحرب أنايَ

في الماضي الذي يتراءى لي بعيداً إلى درجة أظنّه سحيقاً، وما هو بسحيق، كنت أستطيع بالضبط تحديد سبب الحال النفسية التي أعيشها في لحظة معينة.

أنا فرحة الآن لأني تلقيتُ نبأ الموافقة على نشر رواية "غرفة مطلّة" التي أنجزتُ ترجمتها منذ سنتين ونيّف لكنها بقيَتْ قابعة في أدراج مدير مكتب الترجمة، الذي يحرص كل الحرص على قراءة كل ما يرد إلى هيئة التأليف والترجمة، وخصوصاً النصوص المترجمة، باعتبارها نقلاً لثقافة أخرى. هو لا يأتمن القرّاء المكلفين من الوزارة قراءتها، إذ يحرص أشد الحرص على أن تتناسب جميع المنشورات مع قيمنا وأخلاقنا وأعرافنا التي نشأنا عليها تحت سقف وطن يزرع العزة في نفوس أبنائه مستعيناً بشعار "اعتز بنفسك يا حيوان!". يأخذ على عاتقه مهمة منع تسرب أفكار هدّامة عبر أي كتاب وافد من ثقافات أخرى قد تفضي بقارئها إلى أن يصاب بوباء الوهن النفسي المُعدي الذي ينتشر في جسد الأمة بأكملها كالنار في الهشيم، فتقع الواقعة.

أنا الآن خائفة لأن البلدية قد تهدم السقف الذي استدنتُ مبلغاً يعتبر ثروة بالنسبة إلى راتبي، لأتآوى تحته، أنا وزوجي وأطفالي، في قمة ذلك الجبل المهمل ببيوته المتناثرة العشوائية التي تشي بعشوائية القدر المحكوم بقرار، إما أن يكون محرّكاً للمهدّة فتهوي صعوداً ونزولاً فوق السقف الكريم فاتحةً فيه نوافذ تهوية تتسرب منها الأحلام والأمنيات ببيت "يستر عويباتي"، وإما أن يكون طاقية إخفاء تلبسها هذه المهدّة ذاتها وتختفي، تبعاً للمبلغ المدفوع لمسؤولي البلدية، بدءاً من رأس هرمها نزولاً نحو المهندس ومسؤول الهدم، وصولاً إلى قاعها، وهو جارنا. جارنا هذا، يسكن البيت الملاصق لبيتنا وقد بناه وصبّ سقفه بيديه وعلى علم من البلدية ذاتها بحكم أنه معلّم باطون، وقد أقنع زوجي بأن يتولى تعمير البيت (صب السقف) ثم تبيّن في ما بعد أنه هو نفسه المخبر الذي وشى إلى البلدية بفعلتنا المنكرة المخالفة لقوانين بناء صرح الوطن، فضرب بذلك عصفورين في تقرير واحد.

أنا الآن فخورة لأن المشرفة على ابني في الروضة نقلت لي البشارة بأنه طفل مميز عن كل أقرانه، مميز في كل شيء، في دراسته، عقله، تربيته، ذكائه، حتى بتناحته الطارئة وغير المبررة التي يظهرها بين حين وآخر، وخصوصاً حين تحدّثه عن ضرورة التزام الأخلاق الحميدة كيلا يشويه الله كالفرّوج، فينظر إليها مستغرباً ويجيبها برعب وتناحة يتميز بهما (حسب كلامها) عن كل أقرانه: "لكن أمي أخبرتني أن الله لطيف ويحبّ الأطفال. لم تذكر لي يوماً أن لديه شوّاية فراريج على رغم أنها تعرف أني أحبّ الشاورما كثيراً". عند محاولتها التالية لإقناعه أن الحساب والعقاب ليسا نزهة كما علّمته أمّه (الغريبة التفكير)، أخبرها بقصة فرن الفطائر الذي رافق والده إليه، وهناك رفعه الخبّاز بيديه نحو تنّوره ليريه كيف تنضج فطائره اللذيذة، فما كان من ابني إلا أن استجداه حين حسبه يهمّ بإدخاله إليه "لك أنا إنسان مو فطيرة"، وأكد لها أن أحداً من الكبار لم يذكر أمامه أن لله حصة في هذا الفرن، وهو يصدّق ذلك لأنه لم يرَ داخل تنّوره سوى الفطائر. لم يكن فيه أي إنسان. هذا ما جعل كل أساليب المشرفة، الترغيبية منها والترهيبية، تفشل فشلاً ذريعاً في إقناع ابني بأن أمه التي هي أنا، ليست أكثر من بارعة في وضع الماكياج ودهن المساحيق التجميلية على وجه القصص المتعلقة بأمور كثيرة أرعبتها في صغرها، ليس آخرها العقاب الإلهي.

لوحتان لنزار ضاهر.

أنا الآن حزينة لأن أبي أخبرني بأنهم أوقفوا صرف معاشه التقاعدي الذي لا يملك غيره، كمورد رزق يعيله هو وأمي وأختي مع أولادها، التي عادت لتعيش معهم في بيت العائلة مذ قررت الانفصال عن زوج أقل ما يقال عنه إنه جحش لا يحسن تدبير أمور حياته، ولا التعامل مع محيطه، ضمناً "بقرته" (بين قوسين، أختي) التي عقد قرانه عليها منذ عشر سنين. للغرابة، تبيّن له مع مرور السنين أنها إنسان تسير على قدمين، لها قلب ومشاعر ولديها حاجات، وفوق ذلك كله تدعى زوجة!

أوقفوا صرف المعاش لأسباب تعود إلى أنهم أضاعوا كل الإيصالات التي تثبت أن أبي كان ملتزماً طوال 30 عاماً دفع المبلغ المخصص للتأمينات الاجتماعية، الذي كان يتم اقتطاعه من الراتب كل شهر بشكل أوتوماتيكي. يعني أنه لا يُصرف مع الراتب ولا يشمّ قرشٌ منه رائحة كفّ أبي اليمنى ولا حتى اليسرى. تالياً، هو لا يعرف شكل أي جيب من جيوب بنطاليه اليتيمين، فكيف يوقفون الراتب لأنهم فقدوا الإيصالات التي تثبت أنهم كانوا يقتطعونه ولن يستأنفوا صرفه ما لم يظهر ذلك الموظف الذي كان مسؤولاً عن الأمر، والذي قد يكون في ذمة الله حالياً، أو يعاود أبي دفع كل ما تراكم عليه لصالح التأمينات أو إلى أن يقضي الله أمراً كان مفعولا!

أنا الآن أشعر بأني أنثى لأن زوجي عبّر أكثر من مرة وهو يتناول أكلته المفضّلة، "البرق"، عن إعجابه بقدرتي على إضافة كمية الملح والحمّض المتوافقة تماماً مع ذائقته، متلمظاً طوال فترة المضغ، مغمضاً عينيه ومدندناً لحناً شجياً يتألف من جملة موسيقية واحدة أشعلت بتكثيفها نيران غروري الأنثوي فحوّلتني إلى راقصة باليه راحت تتقافز وتتلوى على نغم الـ "إمممممممممم"، ثم أتبع الـ "إمممممممممم" بـ"الله" وهو يقرأ اسمي في إحدى الصحف وقد نُشرت تحته قصيدة لي قلت فيها: "والبحر من أين له بمنديل يجفف به دموع الغيمة إذا ما أحرق أصابعها البرق؟".

ثم همس لي: أعتبر نفسي محظوظاً لأني أعيش معكِ!

أنا الآن متحمسة وحالمة لأن "في شي بدّو يصير. في شي عم بيصير".

أنا الآن مقهورة لأن الناس بمن فيهم أولئك الذين شاركوني الحلم ذاته، لم يسمع أحد منهم هتافي حين أطلقتُ العنان لحنجرتي وقلبي وكل مشاعري الأخرى بأن ما ينقصني الآن هو أن أحقق هذا الـ"شي الـ بدّو يصير. هذا الـ"شي اللي شفتو عم يصير". وراح الجميع يدوس على بطن الأمر ليجهض كل نور راح يغويني من بعيد ظننته قريباً. فتلاعبوا بي وبثورتي وكسروا نوافذ الأخبار، وعبثوا بأوراق تاريخي، وفتحوا المجارير في وجه مستقبلي، وحشروا أنوفهم في مكان وجودي وشكل لباسي وطريقة تفكيري ودروب لجوئي وكل ما لا يخصهم ويخصني. أحرقوا غلال أحلامي، ونهبوا رمادي، وذرّوه في بحار دمي الأحمر ورواياتهم الملونة.

كان ذلك في الزمن السحيق.

راهناً، فقدتُ القدرة على تحديد السبب الذي يجعلني أعيش هذا الشعور بذاته أو ذاك. تختلط المشاعر محاكاةً للبيوت التي تختلط جدرانها بسقوفها وأرضها إثر برميل متفجر. أو كما تختلط أشلاء الطفل بالأطراف الممزقة لأخيه وأمه وأبيه وأبناء حارته وأبناء بلده إثر صاروخ سكود أو قنبلة عنقودية، تسيل على روحي ثم تتقشر وتفقد ملامحها كما يسيل جلد البشر ويتقشر بعد تعرضهم لسلاح كيميائي حارق فيترك الجسد والوجه بلا ملامح.

لا الفرح بات يفتّح ورود عوالمي، ولا الحزن يقوقعني، ولا الغضب يقيمني عن مقعدي ولا يقعدني، ولا الخوف يستنفر دقات قلبي، ولا الموت يفرد مظلّته المهيبة فوق سهول روحي. بتّ كائناً هلامياً لزجاً متلاصقاً مفككاً غريباً يشبه موقف العالم من مأساتي. بتّ أحلم حين لا يصلح الحلم. وأتشاءم حين ينزل المطر. فقدتُ لغة خطابي مع نفسي ومع قلبي ومع العالم. بتُّ غريبةً عني، قريبةً مني، بعيدةً عن ذاتي، متلازمة بأنايَ.

أنا الآن حيرى. أقف أمام تغيّر المفاهيم، فالجريمة نصر، والإذلال عز، واللصوصية شرف، والخذلان مكابرة، والقتل دين. لقد اختلط حابلي بنابلي، وبتُّ لا أعرفني. أنا التي نهبني الحلم وأفقدتني الحرب أنايَ.

(سوريا)

شعر

مازن أكثم سليمان

أساطير عموديّة

علامةٌ فارقة
أن يقف التمرّدَ على رأس عمله
أن يبدأ نشاطه بصفعة مباشرة
للساعة التي توقّفتْ لعهود
مكرّرةً الشعار ذاته: "كلُّ ما يهوي أرضًا
يلحسهُ الشّيطان".
مرارًا صدَّقنا المرويَّات
قلنا: ربَّما تأخذ تلك النداءاتّ
عصافيرنا إلى العشِّ الآمِن
أو ربّما لا تترك فاصلاً بينَ الأشياء وقلوبها
كحقائبنا حين تحمل باحةً كاملة
وتهديها للفسحة المخمورة في الخيال
بعيدًا بعيدًا عمَّا يلحسه الشيطان:
"الصراخَ في الاستراحة
إيقاعَ الغيوم في ذروة أحلامها
والفوضى غريزةَ عمل
انحرَفَ عن الهدف المُسبَّق"
مرارًا جلَّدنا الدفاترَ ببحرٍ من نايلون
صعدنا زوارقَ لصاقات الأسماء
كان اليمّ رجلاً قاسيًا يموِّه العصيَّ بأذرع
الزنابق
ويزرع رؤوس الأسوار بكِسَرِ الزجاج
مذكِّرًا دون هوادة
أنّ كلّ ما يسقط أرضًا مهدَّدٌ بالنفي والعار
من التفّاحة الحمراء إلى دبّوس شعركِ
فلا تبكيه كالمهزوم في معركة
اتركيه هناك ضائعًا بين الأرجل
واكتبي على السبّورة
تلك المعادلة الحسابيّة الراسخة:
"لنْ أُقحِمَ الشيطانَ في جدائلي
لكنَّني سأعقد شَعري بقوس قزح
بعد أن أقصّ نهاياته الملامسة للأرض"
... كلُّ ما يهوي أرضًا،
وما لا يهوي،
يلحسه الشيطان
كلُّ بداهةٍ تنتشر على استحياء
كلُّ أزهار الربيع في المقلمة
كلُّ لهوٍ منهوبٍ بين الطوابق
حيث الصراع لحنٌ بلا نوتة
والحركة سربُ طيور
لا غاية لريشها الرقيق
سوى الفكاهة الأوّليَّة:
"حتَّى جحا الصغير
تخلَّى عن جدّته الطيِّبة
حينما وقعَتْ من العربة
ولحسها الشيطان"
اللغزُ حارٌّ دائمًا
والمعرفةُ بَرْدٌ يحدِّقُ بالعظام
من هنا اخترقَ الكبارُ رؤوسنا الصغيرة
مضوا يروِّجونَ لأقدامهم المزروعة في الوحل
ولألسنتهم المورقة بالرياء والأحقاد
مضوا كأشرطة التسجيل يكرِّرون ما ورد في
كتبِ
لم نرها معنا يومًا في ساحة اللعب
فرمينا سرًّا عظيمًا في آذان بعضنا:
"ولماذا لا يمتطون مثلنا
عجلاتٍ مجنَّحة كلعبة الغمَّيضة
تقيهم نجاسة الشيطان؟!"
... لم نكنْ دمىً تغنِّي على البطّاريات
كي نغفو بعمقٍ على وسائدهم الحجريَّة
وحالما كان يصّحو السؤالّ الفدائيُّ كالعسل
المرِّ
كنَّا نكتمه لعصور،
فيَغِيرّ علينا الكابوسّ ذاته:
"انفجر شادي المرعوب باكيًا
كلامّ الأساتذةِ مطرقةٌ على روحه الغضّة
والوالدة توبِّخهُ:
- إهدأْ "يا شيطان وقَّعْت المزهريِّي"
بعدها غنّتْ فيروز "ضاعْ شادي"
وائل السمين يثور قائلاً لأولاد الحارة:
دفنوا جارنا أبا صالح في التراب
دنّسوه بالشيطان
فلماذا لا تكون المقابرّ
في غيمةٍ ما في السَّماء؟!
...
...
شيطانٌ أحمر كموضع اللطمة. أخضر
كقطاف الحريق. أصفر كالقفزة الناقصة.
شيطانٌ يحتلّ الأمتار القليلة بين الفكرة
والفعل. يعيث فتنةً بين سنّ المدرسة وسنّ
المجزرة، أو يحشر الصيفَ في بريد شتاءٍ لا
يبشّر بالخيرات.
شيطانٌ هكذا لأنّه شيطان
لحسَ الأممَ الممرَّغة بالذلّ
لحسَ البشريَّةَ منذ الخطأ العريق
فإنْ كان له بيتٌ
فلماذا لا يكون في قلب المدير
صاحب أثخن عصا في المدرسة؟!
شاشةُ التلفاز عرَضَتْ طائرات حربيَّة
قنابل وصواريخ وقرىً تّباد من علِ/
وعلَّقَ المذيع: إنه عملّ شيطانيّ
- يا... لجهل الكبار:
الشيطان حتمًا لا يسكن أعماق الأرض وحدها
ولا يلحس فقط
كلَّ ما يهوي إليها
إنّما أيضًا
كلّ ما يطير!
...
...
معلِّمتّنا عاقَبَتْ تلاميذ الشعبة
لأنّهم احتجّوا بذلك
وكتبوا على حيطان الصفِّ غاضبين:
إذن...
أين
يقيم
الله؟!

تعليق

طنوس فرنسيس

المعادلتان الصحيحتان
6X6 = صفر و 6X6=36

رفض سمير أن يغادر "وطن الأرز" على رغم كل حروبه الأهلية وأزماته المعيشية، ورفض أيضا أن يغادره حين تحول إلى "وطن النفايات". هذا اللبناني المعتز بلبنانيته، تزوج بلبنانية وأنعم الله عليهما بست بنات كلهن تزوجن من أجانب وكلهن لا يزلن يعشن في لبنان مع عوائلهن، وقد أنعم الله على كل واحدة منهن بستة أولاد، لكن لبنان لم "ينعم" على أي من الأولاد بجنسيته. السبب أن المرأة اللبنانية – وإن كانت لبنانية أباً عن جد- لا تستطيع أن "تنعم" على أولادها بجنسيتها اللبنانية. هكذا تصبح المعادلة صحيحة مئة في المئة: 6 نساء لبنانيات x 6 أولاد لكل منهن= صفر ولد لبناني (حتى وإن كانوا يعيشون في لبنان).

سامر، أخو سمير، لبناني "عالريحة"، بمعنى أنه من أول "فقسة" ترك البلد إلى البرازيل وهو في مقتبل العمر، حيث تزوج هناك من برازيلية وحصل على الجنسية البرازيلية، ورزقه الله بست بنات أيضاً كأخيه. طبعاً، ولا واحدة منهّن زارت لبنان أو تتكلم العربية (أو اللبنانية) لأن الأب كان دائماً مشغولا بتجارته، والأم كونها أجنبية لا تتكلم العربية، إلا أن الأب ولشدة "تعلقه" بلبنان، رفض تزويجهن من أجانب، فكان يختار لكل واحدة منهن شابًا من الجيل الثاني أو الثالث من المهاجرين اللبنانيين الذين ورثوا الجنسية اللبنانية عن آبائهم. وقد رُزقت كلٌّ منهن بستة أولاد أيضاً. مشغول لبنان اليوم بالبحث عن هؤلاء الـ 36 ولداً لإعطائهم الجنسية اللبنانية حسب قانون استعادة الجنسية الذي أقرَّ أخيرا، فيستقيم إذاك جدول الضرب (الضرب على الرأس) وتصبح المعادلة 6x6=36 لبنانياً هي أيضا صحيحة، حتى وإن كان الأولاد في البرازيل.

يمكن الواحد منا، أو الواحدة، عذرا ، فاللغة العربية ذكورية حتى العظم، وليس من السهل تطويعها، أن يكون مع زيادة عدد حاملي الجنسية اللبنانيّة فيكون إذاك مع قانون استعادة الجنسية، ومع "قانون" يجيز للمرأة اللبنانية أن تمنح زوجها وأولادها جنسيتها، أو أن يكون ضد تلك الزيادة فيكون ضد القانونين معاً. أما أن يكون الواحد منّا مع الأول ضد الثاني أو بالعكس، فهنا تكمن الحزّورة. "الصيغة اللبنانية الفريدة" هي وحدها كفيلة حل تلك الحزّورة.

فضيحة الفضائح أنّ قانون الجنسية يجيز للأجنبية التي اكتسبت جنسيتها بزواجها من لبناني، ان تعطي جنسيتها اللبنانية المكتسبة لأولادها من زواج آخر، بينما يَمنع هذا الحق عن اللبنانية.

المضحك المبكي أنّ الدستور في لبنان يحفظ للمرأة حقّ خوض معترك الحياة المهنية والعملية، شأنها شأن الرجال، ولها الحقوق السياسية نفسها في الإقتراع والترشح والإنتخابات، وتمثيل الأمة في البرلمان. على رغم كل ذلك، يبقى زوجها وأولادها غير مستحقّين "نعمة" الجنسية اللبنانية.

هكذا يتحول جدول الضرب (على الرأس) إلى جدول قسمة بين اللبنانيين "المش ناقصهم قسمة".

بين الضرب على الرأس والقسمة بين اللبنانيين يبقى الحراك المدني، فكراً وثقافةً واجتماعاً وسياسةً، وصولاً الى الدولة المدنيّة، هو الخيار الأفضل... حتى لجماعة البرازيل.

(أوستراليا)